النظرية الإدراكية وأثرها في الدرس البلاغي

" الاستعارة أنموذجاً"

أ. د صالح بن الهادي رمضان

المقدّمة

إنّ المسائل المعرفية والقضايا الفكرية التي تثيرها العلوم اللغوية الإدراكية، وهي تتطرّق إلى دراسة نشاط الاستعارة في التواصل العادي أوالعلمي⁽١⁾ أو الإبداعي، هي التي دفعتنا إلى الإسهام مع سائر الباحثين المهتمّين بهذا الحقل العلمي في إعادة النظر في جوانب من الدرس البلاغي⁽٢⁾ بالاستناد إلى النتائج التي توصّل إليها الباحثون في هذه العلوم سواء في الدرس البلاغي أو النحوي أو الأدبي أوفي عامّة العلوم الإنسانية وخاصّة العلوم النفسية والاجتماعية . وهي نتائج تعيننا دون ريب على فهم الاستعارة في منظومة التواصل بين المتخاطبين بلغة واحدة، وضمن ثقافة واحدة، كي نفهم لم يستعمل المتكلّم الأعمال الاستعارية دون غيرها من الأعمال القولية؟ هل يقدّم لنا معرفة أم يقدّم لنا كما يقول لودفيك فتقانشتاين إحساسا باللغة ؟ هل نرى ونحن نستمع إلى الاستعارة أشياء أم نرى الصور اللغوية أوالحديث عن الذهن ؟⁽٣⁾.

---

(١) ذلك أنّ الخطاب العلمي قد يستعمل الاستعارة لتنظيم المعرفة أولتفسيرها وتوضيحها أوغير ذلك من المقاصد فقولنا "إنّ فروع الفلسفة كثيرة" إنّما هواستعارة لصورة الشجرة في تشبيه الفلسفة بشجرة العلوم ، أوتتفرّع هذه النقطة فرعين فهوكذلك استعارة .

(٢) لا نعني بطبيعة الحال الدرس التعليمي وإنّما نعني الدرس العلمي .

(٣) تحقيقات فلسفية تعريب عبد الرزاق بنّور ،المنظمة العربية للترجمة بيروت ٢٠٠٧ ص ٤٦١ .

ونلحظ أوّلا أنّ التطوّر الذي عرفه الدرس البلاغي الحديث في مجال فهم الاستعارة وآلياتها وكيفية إنتاجها وتقبّلها لم يكن طفرة علمية محدودة أوتطوراً ذاتياً داخلياً أنتجه علم البيان بدلالته القديمة وخاصة في اهتمامه بجمال العبارة، كلاّ بل إنّ هذا التطوّر كان وليد تفاعل مخصب بين مختلف علوم اللسان وخاصّة اللسانيات التداولية أوما يعرف عادة عند أهل الاختصاص بلسانيات الخطاب أوالتلفّظ أوالنصّ، وسائر حقول المعرفة الإنسانية كعلم التربية البنائي وعلم النفس الإدراكي⁽¹⁾ . وكان هذا التطوّر ثمرة انتقال معرفي خصب من الاهتمام بجمال العبارة في الخطاب الأدبي وهومجال ضيّق طالما أرهق الدرس البلاغي وعزله عن واقع الخطاب التواصلي عامّة، إلى الاهتمام بنجاعة العبارة في سياقاتها البلاغية الحيّة الواسعة⁽²⁾، وبمسالك بنائها الذهني أوبمعمارها المعرفي

---

(١) يمكن أن نعرّف علم النفس الإدراكي cognitive psychology بأنّه علم من علوم النفس يهتمّ بمسالك إنتاج الدماغ البشري للمعرفة وتنظيمه لها ،وبطرائق التفاعل بين الذهن والمحيط البشري وأشكال تخزين المعلومات واستعمالها وفق الخطاطات الذهنية والحاجات .

(٢) ظلت البلاغة في عامّة الحضارات القديمة حبيسة التصنيف المدرسي ،وقد مثّلها خير تمثيل في اللغات الأوروبية قيصر شينوديمارسي (١٧٥٦-١٦٧٦ César Chesneau Dumarsais) في مصنّفه الشهير الذي يعدّ المرجع الأساس في البلاغة التعليمية وهوكتاب الصور (Traité des tropes) وقد ضبط أنواع الصور بمعزل عن السياق الأدبي الذي تستعمل فيه . ويمكن أن نعدّ مصنّف كايين بيرلمان ولوسي تيتيكاه البلاغة الجديدة أوفي الحجاج منطلق التحوّل =
= الذي عرفه الدرس البلاغي في أفقه الجديد الذي يعيد إلى البلاغة الأرسطية دلالتها الواسعة بعد أن

أو الإدراكي(١) في اللغة اليومية وفي سائر الخطابات(٢). وفي هذا السياق يقول فرانسوا راستيه:" إنّ الاختزال الأخير للبلاغة واقتصارها على دراسة الصور ثمّ المجازات وإبعادها عمّا هو مجتمعي جعلها قابلة للدراسة من قبل (كذا) لسانيات اللسان وليس لسانيات الاستعمال، وهو أمر يحرم اللغة

سجنت لقرون عديدة في باب العبارة والمسارد البلاغية الثلاثة ذات الصبغة المدرسية التبسيطية وهي علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع .انظر تقديم هذا الكتاب وتلخيص أبوابه ضمن أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم (إشراف وتقديم حمادي صمّود) منشورات كليّة الآداب منّوبة تونس ١٩٩٨، والكتاب منشور باللغة الفرنسية، وقد ظهرت أوّل طبعة له سنة ١٩٥٨ انظر : ▯. Perelman et L.Tyteca: Traité de l' argumentation puf ١٩٥٨

(١) انظر تحليل هذه الفكرة عند عبد الإله سليم ضمن كتابه بنيات المشابهة في اللغة العربية : مقاربة معرفية دار توبقال للنشر الدار البيضاء ٢٠٠١ .ص ٧ ، ونلحظ أنّ هذا الباحث وغيره من الدارسين في المغرب يستعملون مصطلح المعرفي أو العرفاني لوسم النشاط الذهني ولكنّني أفضل عبارة الإدراكي؛ لأنّ عبارة المعرفي تبعد بنا عن النشاط الداخلي للذهن وتحيل على معنى النشاط العلمي والفكري الخارجي عموما ، أمّا عبارة العرفاني فقد ارتبطت بالفكر الصوفي .

(٢) ذلك أنّ اللسانيات التداولية تثبت اليوم أكثر فأكثر أنّ المجاز منغرس في اللغة اليومية وأنّه ليس بخصيصة من خصائص الخطاب الأدبي بل يشكّك اللسانيون الإدراكيون في مقولة الانزياح أو العدول لأنّهم يرون أنّ المجاز جزء من التواصل العادي ، انظر تحليلنا لهذه النقطة ضمن مؤلّفنا الخطاب الأدبي وتحدّيات المنهج منشورات النادي الأدبي بأبها ١٤٣١- ٢٠١٠ ص ٢٢.

من البعد الخطابي (بفتح الخاء) والنصّي(١) . لقد أعادت اللسانيات طرح العلاقة المعرفية التي تصلها بالبلاغة بعد أن اتّسع مجالها وكسرت قيود الدرس النحوي القديم وتحالفه مع المنطق(٢). وشرعت اللسانيات في تخليص البلاغة من ربقة التصوّر الاختزالي الذي يقتصرفيه الدرس البلاغي على وصف الصور ثمّ المجازات معزولة عن أبعادها الاجتماعية والسياقية والخطابية. وقد تنامى في العقود الأخيرة اهتمام علماء التواصل في حقل الصحافة والوسائط السمعية البصرية والإشهار(٣) بصناعة الخطاب، فكان لذلك بالغ الأثر في تطوّر الدرس البلاغي بمدلوله الواسع أي الدرس الذي يسهم في إنتاج المعرفة . ويعسر في هذا المقام أن نلمّ بالروافد التي أسهمت في مدّ جسور التواصل المعرفي بين حقل الدراسات البيانية وحقول المعارف اللسانية والأدبية والإدراكية(٤) . ولكن نكتفي بالإلماع إلى أهمّ

---

(١) فنون النصّ وعلومه ،ترجمة إدريس الخطّاب دار توبقال للنشر الدار البيضاء ٢٠١٠ ، ص ١٧٤ وقد جاءت ترجمة هذه الفقرة في أسلوب ملتوثقيل .

(٢) فرانسوا راستيه : المرجع نفسه ص ١٧٠ .

(٣) في خصوص النظرية الوسائطيّة ينظر في العادل خضر : الأدب عند العرب منشورات كلية الأداب منّوبة ودار سحر للنشر تونس ٢٠٠٤ ص ص ١٦- ٣١ ، فقد اعتمد أهمّ المراجع التي تعرّف بهذه النظرية وبمختلف الوسائط الثقافية التي تنتج الظاهرة الأدبيّة ضمن نظام ثقافي محدّد .

(٤) نحيل في هذا السياق على نماذج من الأبحاث المهمّة التي لخّص أصحابها تاريخ التفكبير البلاغي في صلته باللسانيات التداولية والإدراكية وبعلم الحاسوب انظر مثلا حسام الخطيب: الأدب والتتكنولوجيا وجسر النصّ المفرع ، المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر بيروت ١٩٩٦ .

المراحل التي تبلور من خلالها الدرس البلاغي ذوالصبغة الإدراكية وخاصّة المسائل المتّصلة بالاستعارة . فقد انتهى علماء التربية البنائيون⁽¹⁾ وفي صدارتهم جان بياجه إلى أنّ اكتساب الطفل للغة ينطلق من سلسلة عمليات استعارية تفرضها عليه معرفته المحدودة لأنّ إدراكه للموجودات بشكل تدريجي بنائي يدفعه إلى بناء علاقات بين الأسماء الحاصلة في رصيده اللغوي والمسمّيات الجديدة فينتج بذلك استعارات مختلفة . وقد أسهم علم النفس الإدراكي في بناء هذا الدرس بما انتهى إليه من نتائج علمية في وضع اللبات الأساس لفهم أنظمة الإدراك الذهني للمعرفة ووصف مساراتها ومعمارها وضبط آليات اشتغالها و شتّى الإستراتيجيات التي يضعها الإنسان لحلّ مشاكله اليومية في مختلف المجالات .⁽²⁾

---

(١) علم التربية البنائي هونظرية تربوية تستمدّ مفاهيمها من الفلاسفة البنائية وترى أنّ المتعلّم لا يتلقّى المعرفة تلقيّا سلبيا ، وهوليس بصفحة بيضاء تسجّل عليها المعارف مهما تكن المرحلة التعليمية وإنّما يكتسب المتعلّم المعرفة الجديدة باستخدام المعرفة السابقة ، فهوإذن لا يتعلّم بشكل سلبي بل يسهم بما يعرف من التجربة الحسيّة أوالعقلية ، والاجتماعية في بناء المعرفة الجديدة .ومن المراجع المهمّة التي تفسّر النظرية البنائية يمكن أن نعود إلى التطور المعرفي عند جان بياجيه لموريس شربل المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٤٠٦- ١٩٨٦ وخاصّة الفصلين الخامس والسادس ص ص ١٠٩- ١٥٨ وهما في الذكاء الحسّي - الحركي عند الطفل ومختلف عمليات البناء الإدراكي .

(٢) يمكن أن نعود في هذا الباب إلى : Jean Luc Roulin : Psychologie cognitive Bréal Rosny
٢٠٠٦, Annie Barais : L' Homme cognitif, PUF Paris ٢٠٠١ '

١ - الاستعارة ونظرية النقل والاستبدال :

يمكن أن نرجع تصور الفكر الإنساني القديم لنشاط الاستعارة عامّة إلى مفهوم الاستبدال(١) والنقل، وهوالأساس الذي عليه انبنى التصور الأرسطي والعربي والغربي القديم: ففي النظرية الأرسطية يقوم هذا المفهوم على مبدأ المشابهة(٢) والإعارة، والاستعارة في الفكر البلاغي العربي مبالغة في التشبيه(٣) أوهي:" أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به

---

(١) استعمل مصطلح الاستبدال للدلالة على مفهوم الاختيار في اللسانيات العامّة ، وهواستعمال يدخل على الجهاز الاصطلاحي ارتباكا ، انظر مثلا محمد عبد المطلّب ، البلاغة والأسلوبية الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٨٤ ،ص ٦٢-٦٣ ، فهويستعمل عبارة استبدال بمعنى جدول الاختيار في تحليله للمفهوم اللساني المعروف وهوأنّ كلّ كلمة تدرج في تركيب إنّما تكون اختيارا من جدول : فقولك أدّيت الواجب اختيار من جدول فيه قمت بالواجب وأنجزت الواجب وأنهيت الواجب إلخ...

(٢) يستعمل بعض الباحثين عبارة النظرية التشبيهية ولكنّها في رأيي عبارة غير دقيقة بل غير وفية لوسم دلالة البنية التي تقوم على القياس والتناظر ،والأولى أن نستعمل عبارة "المشابهة "، انظر مثلا محمد عزّام ، تحليل الخطاب الأدبي في ضوء المناهج الحديثة ،منشورات اتّحاد الكتّاب العرب دمشق ٢٠٠٣ ص ٢٤٦ فقد استعمل هذا المصطلح مسايرا في ذلك استعمال محمد مفتاح قي كتابه المتواضع تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناصّ .

(٣) وإن كنّا نجد اختلافا بين أرسطومن جاء بعده من البلاغيين المنتسبين إلى نظرية النقل والاستبدال فإذا كان أرسطويعدّ التشبيه شكلا من أشكال الاستعارة فإنّ فنتني مثلا يذهب إلى أنّ الاستعارة شكل من أشكال العدول عن التشبيه انظر: P. Fontanier: Les Figures du discours. Paris flammarion p١٣٢, ١٤٥،١٥٠

الطرف الآخر مدّعيا دخول المشبّه في جنس المشبّه به، دالاّ على ذلك بإثباتك للمشبّه ما يخصّ المشبّه به "(١) . فالاستعارة بجميع أنواعها عملية نقل للّفظ من "مسمّاه الأصلي على سبيل الإعارة للمبالغة في التشبيه "(٢) . وتركيب الاستعارة يحمل معنيين اثنين أودلالة مزدوجة : دلالة حرفية وهي كاذبة ودلالة مجازية هي المقصودة بأسلوب التشبيه(٣)، ويستمدّ البلاغيون القدامى تعريفاتهم للاستعارة على اختلاف مصنّفاتهم من هذه النظرية فالاستعارة هي : "ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له(٤) . وقد استقرّ في هذه النظرية الاستبدالية أنّ المتكلّم ينطلق من التشبيه أوينجز عمل التشبيه، ثمّ ينصرف عنه إلى الاستعارة .يقول فرانسوا راستيه : " يسلك تقسيم الدلالة اللفظية المعجمية وهي ضرورية لتمييز المجازي من غير المجازي ثلاثة(كذا) طرق : مقابلة الكلمات (من الكلمة الأصلية إلى الكلمة المجازية)، مقابلة استعمالات الكلمة ذاتها (من المعنى الأصلي أو

---

(١) السكاكي ، مفتاح العلوم ، ط١ دار الرسالة بغداد ١٩٨١ ص ٥٩٩.

(٢) القزويني ، الإيضاح ،تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ،ط دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧١ ص ٤٠٧ .

(٣) راجع أرسطووالاستعارة ضمن القاموس الموسوعي للتداولية لجاك موشلار وآن ريبول ، تعريب مجموعة من الأساتذة والباحثين ، المركز الوطني للترجمة تونس ٢٠١٠ ص ص ٤٢٩- ٤٣١.

(٤) وهذا التعريف هو عينه في عامّة المصنّفات القديمة ، في البيان والتبيين للجاحظ وقواعد الشعر لثعلب والموازنة للآمدي والنكت للرمّاني وغيرها من المؤلّفات .

المعنى الحرفي إلى المعنى المجازي)، وأخيرا أجزاء دلالة الكلمة (من الأفكار الرئيسة إلى الأفكار الثانوية مثل الإيحاء والإحالة)(١). إنّ الاستعارة تحمل معنيين اثنين: معنى أصليا أو حرفيا هو المعنى الإبلاغي المقصود تبليغه ومعنى فرعيا أو ثانيا وهو المعنى المجازي، والاستعارة هي قياس أو استبدال للمعنى الأوّل بالمعنى الثاني وهو مجازي وتوسّعي(٢)، وذلك لتحقيق البيان ولتحسين المعنى وتفخيمه وتقويته في ذهن السامع . وقد سار البلاغيون العرب على هذا النهج في فهم الاستعارة وتحليل أركانها وتنزيلها منزلتها من سائر أنواع أبنية المشابهة، وذهبوا في تعريفها إلى أنّها تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل والإبانة، فالاستعارة نشاط استبدالي بالمعنى اللساني للاستبدال(٣)، وهي نقل معنى من مجال دلالي هو شائع فيه معروف به إلى مجال دلالي آخر غير مستعمل فيه وذلك على وجه الإعارة. ويذهب بعض الباحثين من المهتمّين بالبلاغة

---

(١) فنون النصّ ص ١٧٥ .

(٢) المعنى المجازي هوالمعنى الذي لا نجده في أصل الاستعمال وإنّما هومستعمل على المجاز فقط كقولك هذا الرجل اجتماع يمشي في الطريق ،فالمعنى هنا أنّه يثرثر ويكثر من الكلام ولا وجود في الأصل لاجتماع يمشي في الطريق وأمّا المعنى التوسّعي فكقولك هذه الغرفة زريبة أبقار ، نظرا إلى الفوضى التي تعمّها ،فقد استعملت معنى موجودا في الأصل وهوزريبة أبقار، ولكّنك استعملته على التوسّع .، انظر القاموس الموسوعي للتداولية ص ٤٣١ .

(٣) محور الاستبدال أوالاختيار في النظرية اللسانية هوأحد المحورين الرئيسين اللذين عليهما تقوم عملية تأليف الكلام (الاستبدال والتراكب أوالتركيب) .

الإدراكية إلى أنّ هذا التصور العامّ لا يعدم استثناءات طريفة تعدّل النظرية وتبرز وجوه قصورها، وفي هذا المجال يرى عبد الإله سليم أنّ عبد القاهر الجرجاني قد " انتقل في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من النظر إلى الاستعارة باعتبارها عملية نقلية تفصح عن إمكان انتقال اللغة من الأصل إلى الفرع إلى النظر إليها باعتبارها عملية ادّعائية، إنّ الاستعارة في نظره ليست نقل معنى من طرف هو مالكه وصاحبه الأصلي إلى طرف هو مستعيره ومقترضه، بواسطة مسوّغ ما إنّما هي عكس ذلك ادّعاء المعنى لمعنى آخر "(١). ويورد الباحث قول الجرجاني : "وإطلاقهم في الاستعارة أنّها نقل العبارة عمّا وضعت له من ذلك فلا يصحّ الأخذ به؛ وذلك أنّك إذا كنت لا تطلق اسم الأسد على الرجل إلاّ من بعد أن تدخله في جنس الأسود من الجهة التي بيّنا لم تكن نقلت الاسم عمّا وضع له بالحقيقة لأنّك إنّما تكون ناقلا إذا أنت أخرجت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك ونفضت به يدك، فأمّا أن تكون ناقلا له عن معناه مع إرادة معناه فمحال متناقض ". (٢) وفعلا فإنّ مجادلة الجرجاني للنظرية البلاغية التي يتبنّاها سابقوه تقوم على الطعن في نقل المعنى وهو ما سنراه في حديثنا عن الاستعارة والنظرية التفاعلية لكنّه جاء ليميز المعنى من معنى المعنى، فرأي الجرجاني الذي هاجم به سابقيه مؤدّاه أنّ عملية النقل ينبغي ألاّ ينظر إليها

---

(١) بنيات المشابهة في اللغة العربية ص ٦٠ .ولكنّه لم يستغلّ هذا الرأي كما سنرى في الفقرات الآتية.

(٢) م.ن .

بما هي نقل للمعنى الأصلي في المستعار لأنّه لا مزية لهذا المعنى، وينبغي للمتلقّي أو السامع أن ينظر إلى المعنى من جهة التأويل وإنتاج المعنى أومن جهة ما سمّاه شكري المبخوت بالاستدلال البلاغي(١)، يقول الجرجاني معرّفا الاستعارة : " وذاك أنّ موضوعها على أنّك تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ ولكنّه يعرفه من معنى اللفظ، بيان هذا أنّا نعلم أنّك لا تقول رأيت أسدا إلاّ وغرضك أن تثبت للرجل أنّه مساو للأسد في شجاعته وجرأته وشدّة بطشه وإقدامه .ثمّ نعلم أنّ السامع إذا عقل هذا المعنى لم يعقله من لفظ الأسد ولكنّه يعقله من معناه " .(٢) نستنتج من رأي الجرجاني هذا أنّ قولنا زيد أسد لا يتمّ فيه نقل معنى لفظ أسد الذي هو المعنى الأصلي للأسد أو المعنى الحرفي للكلمة أي ذلك الحيوان اللاحم المفترس الذي له نيوب وأظافر قاطعة وزئير، وهو يعيش في الغاب، بل إنّ حركة النقل يستتبعها إنتاج للمعنى من المعنى الأوّل وهو صفات الشجاعة والجرأة والإقدام . فالجرجاني يرفض إذن النقل بمعناه الحرفي لأنّ الاستعارة لا تتحقّق بالمعنى الحرفي بل بالمعنى الثاني أو المصاحب أو الحافّ.

---

(١) انظر تفصيل القول في معنى المعنى ضمن كتابه الاستدلال البلاغي الفصل الأوّل الخاصّ بالجرجاني والموسوم بالاستدلال بالمعنى على المعنى ص ص ٣٩-٥٤، سلسلة مقال مقام ، دار المعرفة وكلية الآداب منوّبة تونس ٢٠٠٦ .

(٢) دلائل الإعجاز تحقيق محمد رشيد رضا ط دار المعرفة بيروت ١٩٨١ ص ٣٣١ .

٢- الاستعارة والنظرية التفاعلية :

لئن كانت نظرية الجرجاني في الاستعارة وفيّة لأصول النظرية العامّة وهي المشابهة والاستبدال والإعارة فإنّ توسّعه في فهم حركة الاستعارة مكّنه من الانفتاح على التفكير التفاعلي فكان في نظرنا مدركا للوجه الآخر للعلاقة بين المستعار والمستعار له أو المعنى الأصلي والمعنى الفرعي بتعبير القدامى، فقد ذهب في أسرار البلاغة إلى أنّ العالم الذي ينتمي إليه الطرف المستعار في تركيب الاستعارة ليس معزولا تمام العزل عن الطرف الثاني أي المستعار له، بل إنّ بينهما في الأصل صلة دلالية في معنم (١) من المعانم يقول : " فأنت تستعير معنى الأفضل لما هودونه ومثاله استعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرعة، وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من العلو، والسباحة لأنّه إذا عدا عدوا كان حاله فيه شبيها بحالة السابح في الماء . ومعلوم أنّ الطيران والانقضاض والسباحة والعدوكلّها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق، إلاّ أنّهم نظروا إلى خصائص الأجسام في حركتها فأفردوا حركة كلّ نوع منها باسم، ثمّ إنّهم إذا وجدوا في الشيء في بعض الأحوال شبها من حركة غير جنسه استعاروا العبارة من ذلك الجنس فقالوا في غير ذي جناح طار كقوله * وطرت بمنصلي في يعملات * "(٢). لقد أدرك عبد القاهر الجرجاني أنّ صلة المستعار بالمستعار

---

(١) هوحزمة من السمات الدلالية المكوّنة للكلمة أوللقطب الدلالي .

(٢) أسرار البلاغة تصحيح محمد عبده وتعليق محمد رشيد رضا ط بيروت ١٩٨٨ ص ٤١ .

له وثيقة وأنّهما غير منفصلين، بل أدرك أنّهما ينتميان إلى عالم تتفاعل فيه الأقطاب الدلالية، وإنّنا نستغرب كيف يقدّم بعض الباحثين العرب نظرية ريتشاردز ونقده للنظرية الاستبدالية دون الإلماع إلى نصّ الجرجاني لتعديل الحكم المطلق الذي أصدره ريتشاردز، يقول عبد الإله سليم مثلا : " سبق الإشارة إلى أنّ هناك منظورا تقليديا للاستعارة ذا طابع استبدالي (...) وقد فرّع بلاك⁽¹⁾ عن هذا المنظور منظورا آخر أطلق عليه اسم منظور المقارنة (...) معلنا أنّ دلالة الاستعارة لا تتحدّد من خلال الكلمة بل من خلال القول وبذلك تكون دراستها جزءاً لا يتجزّأ من علم الدلالة. وإذا استقرّت دلالة الاستعارة في الكلمة وانقضت حاجتها إلى السياق الذي ينشّطها ويعطيها دلالتها الديناميكية فإنّها تصبح **استعارة نائمة** وتدخل في رصيد **اللسنيات** المشتركة .وقد تمّ انتقاد هذين التصوّرين من قبل ريتشاردز وبلاك اللذين ركّزا على الطابع الذري⁽²⁾ لهذين المنظورين اللذين يضعان حدودا فاصلة بين طرفي الاستعارة حيث يحافظ كلّ واحد منهما على خصائصه، ويتمّ استبدالهما ببعضهما (كذا) عند الحاجة التجميلية والتوضيحية "⁽³⁾ . لقد تبنّى الباحث نقد ريتشاردز وبلاك للفكر البلاغي

---

(١) هوعالم لساني أنقليزي اهتمّ بدراسة الاستعارة ونشر سنة ١٩٦٢ كتابا بعنوان الاستعارات والمناويل : Models and metaphors cornel university press London

(٢) يعني بالطابع الذرّي الاتجاه الذي ينظر من خلاله إلى الاستعارة بما هي مجرّد كلمة أوكلمتين تتعلّقان بمستعار وتنقلان من مجال دلالي إلى آخر.

(٣) بنيات المشابهة في اللغة العربية ص ٦٢

القديم (الفكر الغربي طبعا) دون أن يكافحه برأي الجرجاني الذي ينهض على عكس ما ادّعياه، أي ينهض على إبراز التفاعل بين الحقل الدلالي للمستعار وللمستعار له، فقول صاحب أسرار البلاغة إنّ المستعار والمستعار له في "سبح الفرس " يشتركان في مطلق الحركة لأنّ السباحة والجري جنس واحد مهمّ في نقد هذه النظرية التي تضرب صفحا عمّا في تاريخ التفكير البلاغي من إلماعات مفيدة في النظرية التفاعلية ؟ . ولم يشر الباحث كذلك إلى أنّ تفكير ريتشاردز التفاعلي هوأيضا ثمرة من ثمار تطوّر الإبيستيمولوجي الذي عرفه علم الدلالة في العصر الحديث على يد الفيلسوف البولوني ألفريد كهشيبسكي (١٨٧٩-١٩٥٠) فهو في تقديرنا أوّل مفكّر قوّض النظرية الاستبدالية الأرسطية بتأسيس رؤية سيميائية جديدة اصطلح على تسمية نظامها المفهومي بعلم الدلالة العامّ، وقد أصدرها في كتابه الشهير العلم وسلامة العقل : مدخل إلى الأنظمة غير الأرسطية وعلم الدلالة العامّ(١) . ولم يكن عبد الإله سليم الباحث الوحيد الذي قصّر في قراءة الجرجاني بل نسجّل أنّ صلاح فضل كذلك سار في أبحاثه نفس السيرة، فهو مثلا لم يهتمّ برأي الجرجاني حين عرّج على تفسير ريتشادز وبلاك للجملة :" الإنسان ذئب " والفرق بين المعنى المعجمي

---

(١) Alfred Korzybski : Science and Sanity : Introduction to Non-Aristotalien Systems and general semantics, internationalNon-Aristotelien Library ٣ed with new pref LakevilleConn: InternationalNon-Aristotalien Library Publishing co ١٩٤٨.

والتداعيات الدلالية "(١) . وإذا كان عبد الإله سليم وصلاح فضل قد قصّرا في قراءة تفكير الجرجاني من الزاوية التفاعلية فإنّ بعض الباحثين ينكر ذلك إنكارا تامّا بصريح العبارة، إذ يذهب جابر عصفور مثلا إلى أنّ العلاقة التفاعلية بين المستعار والمستعار له لم تكن من العناصر الفكرية التي تنهض عليها رؤية عبد القاهر الجرجاني البلاغية يقول :" لا يجول بخاطر عبد القاهر أنّ المعنى الذي نحصّله من الاستعارة ليس هو المعنى الأصلي المزعوم وإنّما هو معنى جديد نبع من تفاعل كلا الطرفين اللذين يكوّنان الاستعارة ".(٢) وقد أفاض عبد القاهر الجرجاني في بيان هذا التفاعل على النحوالذي رأيناه في الشاهد السالف الذكر، فقوله إنّ معنى "زيد الأسد" ليس معنى اللفظ أي الأسدية وإنّما هو المعنى الذي استلزمه اللفظ، فنقل الأسدية إلى زيد يصاحبه إذن تخلّ عن الجانب الدلالي غير المقبول في وصف زيد بالأسدية وهو أنّ له أظافر ونيوبا حادّة قاطعة وأنّه من السباع التي تأكل اللحم، وأنّه يسكن الغاب ويخيف الحيوان .يقول يحيى بن حمزة العلوي : " إذا قلت رأيت أسدا يجدّل الأبطال بنصله ويشكّ الفرسان برمحه، فقد جرّدت قولك *أسدا * عن لوازم الآساد وخصائصها إذ ليس

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النصّ ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت ٢٠٠٤ ص ص ١٨٤-١٨٧.

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩٢ ص ٢٢٦ .

من شأنها تجديل الأبطال، ولا شكّ الفرسان بالرماح والنصال "(١) . وهذا التخلّي هو عينه معنى التفاعل بين المستعار والمستعار له، وهو يقتضي ألاّيكون للأسد شيء من صفات زيد، فمعنى الشجاعة في قولهم جاء زيد الأسد هو التشبه الناتج عن العلاقة بين الفكرتين المختلفتين، فكرة أنّ زيداً رجل وأنّ الأسد حيوان، وهو المحصّلة من التفاعل كما يرى ريتشاردز(٢)؛ لذلك يمكن أن نعوّض الاستعارة بالتشبيه فنقول زيد كالأسد أي إنّه كالأسد في جانب وليس كالأسد في جانب منه أي الحيوان المفترس الذي يسكن الغاب . إلاّ أنّنا لا ننفي أنّ أبحاث ريتشاردز يمكن أن تعدّ المنعرج الفكري الذي تأسّست به لبنات الدرس البلاغي الذي يقوّض مفهوم الاستبدال ويعوّضه بمفهوم التبادل، وهو ينطلق من تصوّر لبلاغة الخطاب قريب جدّا من نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، ذلك أنّه يرى أنّ الكلمة المفردة أو اللفظة المركّبة لا تملك قيمة بلاغية في ذاتها بل إنّ السياق هو الذي يحدّد وجهتها البلاغية، وكلّ سياق إنّما يحيل في الحقيقة على سياق آخر يتضمّن الكلمة نفسها أو المركّب اللفظي عينه، ومن ثمّة

---

(١) الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠ ج١ ص ٢٣٦ .

(٢) يرى ريتشاردز أنّ الكلمة لا تتضمّن قيمة بلاغية في ذاتها وهو من آراء الجرجاني وأنّ السياق هوالذي يمنحها تلك القيمة وانطلاقا من هذا المبدأ فإنّ الاستعارة علاقة بين فكرتين مختلفتين تعملان معا في كلمة واحدة أوعبارة واحدة ويكون معناها أي الاستعارة محصّلة لتفاعلها
Richards(I.A) The philosophy of Rhetoric Oxford univ press New York ١٩٦٧ p٥٩.

تظهر قيمة نظرية التفاعل ونجاعتها في دراسة المجاز عامّة والاستعارة على وجه الخصوص . ويرى ريتشاردز أنّ هذا التفاعل يعني أنّ دلالة الألفاظ تتكاثر وتتوالد بتغيّر علاقاتها داخل السياقات التي تستعمل فيها . ومن جهة أخرى يدحض ريتشاردز الفكر القائم على القياس والاستبدال ويعدّه فكرا تجزيئيا تحليليا لا ينظر إلى نشاط الاستعارة بما هو حدث سياقي بل ينظر إليه بما هوعلاقة بين طرفين متباعدين . إنّ نظرية ريتشاردز ومن سار على نهجه ترى أنّ الاستعارة ليست عملية نقل للمعنى من مجال إلى آخر بل هي عملية تفاعل بين نوعين من التفكبير ينصهران في عبارة واحدة : فالمتلفّظ بالاستعارة يجمع في ذات التركيب بين عالمين ثقافيين مختلفين : عالم ثقافة المستعار وعالم ثقافة المستعارله .وفي هذه النظرية لا يرى الدارس بنية المشابهة من منظور وجوه الشبه فحسب بل يهتمّ كذلك بوجوه الاختلاف، وهي تمثّل المجال غير التفاعلي في الصورة :

مثال (ج)

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ❊❊❊ إذا هي نصّته ولا بمعطّل

إن ّهذا المثال يبّين لنا كيف أنّ الاحتراس بما هو وجه من وجوه البلاغة ناتج عن الحذر الذي يبديه الشاعر إزاء ما قد ينتج في إدراك السامع في هذا المثال من تفاعل بين المشبّه والمشبّه به .ويعني هذا التفاعل أنّ التشبيه بلا احتراس يقدح في ذهن السامع مسالك من وجوه الشبه تتنافى

وجمالية الصورة في الغرض الغزلي في سياق الشعرية العربية . إنّ النظر إلى هذا التشبيه نظرة تفاعلية عمل يوجّهنا إلى أن نبيّن كيف أنّ الشاعر أخذ المعنى الغزلي من المعاني الأعيان المطروحة في الطريق – على قول الجاحظ– الموجودة في الخارج (طول جيد الحبيب وطول جيد الرئم) ثمّ وصل بينهما، وبنى علاقة معنوية غير موجودة في الأعيان، فكان وجه الشبه المعنى الذهني الأوّل المستخلص من العلاقة بين الأعيان، ثمّ شذّبه بثلاثة معان أعيان فغدا معنى غير موجود في الخارج، غدا معنى تخييليّاً، وتمّت بذلك المحاكاة بالمعنى الأرسطي أي حكاية ما يمكن أن يكون أو ما ينشد الشاعر أن يكون .

وأخيرا يمكن أن نكمل عناصر النظرية التفاعلية في حقل الاستعارة بالإلماع إلى جهود المفكّر بول ريكور فيما أطلق عليه تسمية **الاستعارة الحيّة** تمييزا لها من الاستعارة النائمة وهي العبارة الجاهزة التي فقدت قيمتها الإبداعية وأدمجها الاستعمال في المعجم اللغوي المشترك (رغم أنفه– رأس الصفحة – صدر السفينة – ابتسامة الربيع – عجلة التاريخ – أحشاء المدينة – جوف الليل ...) وقد ذهب بول ريكور في سياق تقويض مفهوم الاستبدال إلى أنّ بين المستعار والمستعار له **توتّرا دلاليا** يقتضي التأويل والفهم، توتّرا ناتجا عن الخصومة بين العلامة اللغوية ومرجعها، وبين

العلامة اللغوية وتاريخها الدلالي أي ما اكتسبته من دلالة عبر أجيال الاستعمال المختلفة . فالمتكلّم بأيّ لغة من اللغات يرفض في لاوعيه اللغوي العلاقة الاعتباطية بين الدالّ والمدلول، فتراه يقاوم هذه العلاقة باللجوء المستمرّ إلى الاستعارة؛ لأنّ الاستعارة تمكّنه من إثبات أثره العقلي في العلاقة بين الدالّ والمدلول ومن تعتعة تلك العلاقة التي فرضها التواضع فأصبحت ضربة لازب . ويذهب بول ريكور في هذا السياق إلى أنّ التعريف القديم للاستعارة أي في النظرية الأرسطية وما تفرّع عنها هو **تعريف اسمي** يقتصر على وضع الاستعارة ضمن المسارد المحيطة بها، وهي التشبيه والكناية وغيرهما من أنواع المجاز، وأمّا التعريف التفاعلي فهو يهتمّ بحركة إنتاج الاستعارة في الفكر البشري ووظائفها في الخطاب دون الجملة. إنّ الاستعارة بهذا المفهوم هي رغبة مستمرّة في التوسّع الدلالي، هي صراع مستمرّ بين اللغة والفكر، بين اللغة بصفتها نظاما مفروضا على الفرد والفكر بصفته طاقة خلاّقة للمعنى وللرمز في آن، وهي بهذا المعنى تحويل مستمرّ للكلام ولخصائصه الأنطولوجية(١).

---

(١) Paul Ricoeur : La métaphore vive,Seuil Paris ١٩٩٧p ١٥

٣- الاستعارة والنظرية التداولية(١):

يذهب فرانسوا راستيه وهو أحد أعلام الدلالة التأويلية إلى أنّ من إيجابيات التداولية أنّها وجّهت اهتمامها إلى أبعد من الجملة وفي هذا الإطار فهي تعدّ وريثة البلاغة(٢) ، ويمكن أن نفسّر قوله " أبعد من الجملة " بمثال ملموس من الشعر العربي لبيان التطور الذي عرفه الدرس البلاغي وهوينتقل من المفهوم الاستبدالي الذي لا يجاوز الجملة إلى المفهوم التداولي وهويبنى على القياس الشعري بمقدّماته الاقتضائية ونتائجه :ففي دراسة الاستعارة الواردة في عينية أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه، وقد عدّها البلاغيون من عيون الاستعارة المكنية، تقتصر نظرية النقل على النظر إلى

---

(١) يعرّف آن ريبول وجاك موشلار التداولية بأنّها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعنى به تحديدا اللسانيات البنيوية ، وإذا تحدّثنا عن استعمال اللغة فلأنّ هذا الاستعمال ليس محايداً من حيث تأثيره في عملية التواصل ولا في النظام اللغوي في حدّ ذاته ، انظر فصل التداولية واللسان والعرفان ، تعريب شكري المبخوت ، ضمن القاموس الموسوعي للتداولية مذكور أعلاه ص ٢١، والواقع أنّ هذا التعريف مستمدّ من لسانيات التلفّظ كما ضبط أسسها الأولى إيميل بنفينيست في كتابه الشهير مشاكل اللسانيات العامّة حيث يميّز الخطاب من الحكاية ويبيّن كيف يحيل المتكلّم على مقام التكلّم باستعمال المؤشّرات (هنا- الآن- هؤلاء) وضمائر التكلّم وكيف أنّ كلّ تلفّظ إنّما يتمّ بالانطلاق من موقع الذات المتكلّمة لحظة التكلّم .

(٢) فرانسوا راستيه ، فنون النصّ وعلومه ، مذكور أعلاه ص ١٧١ .

الجملة من الناحية البلاغية الاستبدالية وعلى تعيين الاستعارة وعلى ذكر أطرافها أوالمتعلّقات التي كوّنتها :

مثال (س) وإذا المنية أنشبت أظفارها *** ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

وتكتفي نظرية النقل والاستبدال بالقول إنّ الشاعر شبّه المنية بالسبع، ثمّ اختار منها الأظافر وهي من متعلّقاتها وأسندها إلى المنيّة : " يجعلون المنيّة استعارة بالكناية عن السبع، ويجعلون إثبات الأظافر لها قرينة الاستعارة "(١). ثمّ تدهور تعليم هذه الصورة في الجهاز المدرسي وبلغ من الرداءة والتبسيط درجة صارت فيها الصورة تشخيصاً، وأصبح كلّ أسلوب من أساليب التصوير تشخيصاً. إلاّ أنّ التطور الذي عرفته اللسانيات التداولية أثّر مباشرة في الدرس البلاغي، بفضل العودة إلى خطابة أرسطوطاليس المعروفة بالريطوريقا، ومكنّت العودة إلى مفهوم **حجاجية الصورة** في البلاغة التداولية الحديثة من إعادة النظر في المسار الذهني الذي تقطعه الاستعارة بما هي وجه من وجوه المعرفة وإنّ الاهتمام بالقيمة الإدراكية (الفكرية – المعرفية) للصورة في العصر الحديث قديمة نسبياً، وهي ليست من إنجازات علماء اللسان في العقود الأخيرة من المهتمّين بعلاقة الدماغ بالصور وبإنتاج التخييل، وبالخطاطات الذهنية،

---

(١) السكاكي ، مفتاح العلوم مذكور أعلاه ص ٦١٥ .

وباشتغال المخّ، بل يعود الاعتناء بها إلى أواخر القرن التاسع عشر فقد سعى العالم النفسي فرنسيس جالتن Francis Galton منذ أواخر ذلك القرن إلى أن يحلّل مكوّنات استرجاع الماضي في الذهن البشري بما هوصورة مرئية، وقد واصل أ.أ ريتشاردز هذا الجهد في دراسة الصورة من ناحية الإدراك الذهني فبيّن في كتابه مبادئ النقد الأدبي الصادر سنة ١٩٢٤ أنّ نجاعة الصورة لا تتأتّى من وضوحها وبيانها بقدر ما تأتّى من "كونها حادثا ذهنيا "له "ارتباط خاصّ بالإحساس " و" برسم باق أوتمثيل للإحساس "(١) .

وإذا أجرينا هذا الرأي على بيت أبي ذؤيب في المثال (س) تبيّن لنا أنّ قول الشاعر "وإذا المنيّة أنشبت أظفارها" نتيجة في قياس شعري مقدّمته الأولى هي القضية(٢) الآتية : إنّ المنيّة سبع، ومقدّمته الثانية هي القضية الأخرى: إنّ للسبع أظافر، واقتضى القياس أن نستخرج الصورة استتباعا منطقيا أوحجاجياً من المقدّمتين . ومكّنتنا المقاربة التداولية من أن نكتشف تحفيز الشاعر المخاطب إذ يجعل المعنى الذي يقوم عليه التشبيه تحصيل حاصل في

---

(١) رونيه ويليك ووارن أوستين ،نظرية الأدب ،تعريب عادل سلامة ،دار المريخ للنشر الرياض ١٩٩١ص ٢٥٥.

(٢) أستعمل بطبيعة الحال عبارة القضية بالمعنى المنطقي وهي تقوم على علاقة إسنادية صلة موضوعها بمحمولها غير ضرورية .

ذهن السامع أومقتضى من مقتضيات الكلام (المنية سبع)⁽¹⁾ ويمرّره تمريراً لا يحتاج فيه إلى الإقناع بالمقدّمات الشعرية⁽²⁾ ويرتقي إلى صناعة الاستعارة كما لوأنّ المخاطب قد وافقه على ذلك المقتضى **فالاستعارة إذن هي البنية القياسية التي يتحيّل بها المتكلّم لتمرير الرأي** . إنّ المقاربة الحجاجية وسليلتها المقاربة الإدراكية تمكّننا من اكتشاف النظام المعرفي والثقافي الذي إليه يستند الشاعر في إنتاج نظام التمثيل: ففي البيت المذكور لا يمكن للاستعارة إلاّ أن تكون نتاج فكر متشبّع بروح الحياة الرعوية والزراعية

---

(١) انظر في خصوص الاقتضاء التداولي ونظرية المعرفة المشتركة جاك موشلار وآن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداولية مذكور أعلاه ص ص ٢٤٩ – ٢٥١ فقد عرّفا الاقتضاء التداولي بأنّه قضية يعتقد المتكلّم فيها أويتبنّاها ويعتقد في أنّ المخاطب يعتقد فيها أويتبنّاها .

(٢) ونظير هذه البنية التداولية في النحومثلا استعمال النعت استعمالا حجاجياً لتمرير قضية أورأي ، يقول المعلّق الصحفي في الحديث عن مسامرة شعرية : في القصيدة الرائعة التي ألقاها الشاعر وصف لما يختلج بخاطره من العواطف ، فالنعت الرائعة يقدّمه المتكلّم على أساس أنّه حقيقة لاخلاف حولها أي مقتضى من مقتضيات الكلام ويجنّبه جملة تسبق هذه وهي إنّ القصيدة رائعة، فهويحوّل الإخبار إلى اقتضاء اجتناباً للمناقشة والمعارضة . وفي قول الفيلسوف الاجتماعي جان جاك روسو"إنّ الحرية الحقيقية هي الشعور بالواجب والمسؤولية واحترام حقوق الآخرين ضمن كتابه في العقد الاجتماعي " تنبيه على أنّ هناك من يرى نوعا آخر من الحرية وهي الحرية غير الحقيقية أي حرية الفوضى والتصرّف دون ضوابط أخلاقية أواجتماعية، فالنعت " الحقيقية "إذن يندرج في سياق الاختلاف بين المتكلّم وطائفة من المخاطبين حول هذا الموضوع .

حيث الفريسة تنشب أظفارها في الطريدة، فالموت في هذا اللون من التمثيل ينظر إليه نظرة حسّية دموية مؤلمة وغير عاقلة، وهي نظرة لم تتفتّح زمن قول هذه الصورة للفكر الإيماني الذي يجعلنا نرى في الموت قدراً محتوماً وفق سنّة الله تعالى في خلقه ووفق ما بنيت عليه الحياة والموت من حكمة إلاهية . والاستعارة في هذا اللون من الأقاويل التخييلية هي معمار ذهني أوصورة من صور إدراك الوجود لا يمكن أن نفصلها عن البيئة الثقافية التي عاش فيها الشاعر . إنّ المقاربة التداولية وسليلتها المقاربة الإدراكية تمكّناننا من قراءة الشعر بمجاوزة المنهج المثالي الذي يفصل الصورة عن المضمون واللفظ عن المعنى وهوبطبيعة الحال منهج خاطئ كرّس منذ عقود عديدة قراءة مدرسيّة تبسّط المعرفة البلاغية والأدبية بما لا يتلاءم وعامّة النظريات المعرفية، القديمة والحديثة على السواء .

إنّ إسهام الدراسات التداولية والتفاعلية في تطوير الدرس البلاغي عامّة ودرس الاستعارة بوجه خاصّ حلقة مهمّة في حلقات بناء الفكر البلاغي الحديث، وهي الحلقة التي مهّدت لظهور التيّار الإدراكي في الدرس البلاغي، وقد مكّنت نظرية الأعمال القولية في مدرسة أوكسفورد، وهي كما هومعلوم لبنة أساس في تاريخ اللسانيات التداولية، من تحويل النظر في فهم الاستعارة من دائرة العمل الإخباري الوصفي إلى النشاط

الذهني المنغرس في اللغة اليومية أي الاستعارة التي لا تنقل معنى من مجال دلالي إلى آخر بل الاستعارة التي تبني عالماً فكرياً . وأخيراً نلمع إلى أبرز النظريات التداولية في مجال الاستعارة اكتمالا وهي نظرية سبربر(Sperber) ووليسن (wilson) فقد جاءت هذه النظرية في أواخر الثمانينات من القرن العشرين الميلادي لتجمل القول في عامّة المحاولات التنظيرية التي سبقتها في حقل الدراسات البلاغية التداولية، وتحاول تأسيس تصوّر تداولي ذي قيمة إيبيستيمولوجية عالية في مجال قراءة نظام الاستعارة : ويذهب سبربر وويلسن إلى أنّ كلّ خطاب مجازي يحمل معنيين اثنين:معنى في الجملة أو القول نفسه ومعنى في قول المتكلّم، في أسلوب تقديمه للجملة وتلفّظه بها، أي أنّ للمتكلّم فكرة يمثّلها بقول، ويمكن لهذا التمثيل أن يكون حرفياً كما يمكن أن يكون مجازياً: وتتفرّع كلّ فكرة يقولها المتكلّم نوعين: إمّا أن تكون تمثيلاً لأحوال الأشياء التي يتحدّث عنها المتكلّم، وإمّا تمثيلاً لتمثيل آخر، فإذا كانت الفكرة تمثيلا لتمثيل آخر مقولاً أومفكراً فيه فهي تأويلية، وإذا كانت تمثيلا لحالة الأشياء في الكون فهي وصفية⁽¹⁾. ويذهب سبربر

---

(١) القاموس الموسوعي للتداولية ص ٤٤٨ .

وويلسن من جهة أخرى إلى أنّ القيمة التأويلية للقضية⁽¹⁾ ترتبط وثيق الارتباط بالسياق الذي يقال فيه القول:

ويمكن في ضوء هذه القيمة التأويلية أن نفهم اختلاف القدامى في تصنيف الاستعارة وفهم أنواعها⁽²⁾ ، ففي الاختلاف حول الاستعارة العقلية والحسيّة مثلا يرجع تباين آراء الزمخشري والسكاكي إلى اختلاف زوايا النظر إلى القضية التي تبنى عليها الاستعارة بما هي علاقة إسنادية، يقول القزويني في تلخيص هذا الاختلاف :" وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ ، فعلى ظاهر قول الشيخ جار الله استعارة عقلية؛ لأنّه قال: شبّه باللباس لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وعلى ظاهر قول الشيخ صاحب المفتاح حسّية؛ لأنّه جعل اللباس استعارة لما يلبسه الإنسان عند جوعه وخوفه من امتقاع اللون

---

(١) القضية في السياق الذي صاغ فيه سبربر وويلسن هذه الأطروحة تعني الفكرة التي تحتمل قبول قيمة صدق .

(٢) إنّ أغلب أصناف الاستعارة التي بلغت ذروة تعقّدها في كتب الشرّاح إنّما يعود في نظرنا إلى الاختلاف بين تمثيل حال الأشياء وتمثيل القول الذي يدلّ على حال الأشياء ، انظر مثلا شرح السعد المسمّى بمختصر المعاني في تقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية ،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة د–ت ج ٤ ص ١٢٩ .

ورثاثة الهيئة "(١). فقد نظر الزمخشري إلى الجملة من جهة شكل المضمون بعبارة هايمسلاف Forme du Contenu أو تمثيل القول أو المجاز الذي حلّ محلّ الحقيقة فاللباس في الآية ليس اللباس الحقيقي بل هو شكل لغوي دالّ على مضمون معيّن، وأمّا السكاكي فقد فهم من الاستعارة أنّ المقصود هو أنّه بالفعل يوجد لباس خاصّ بالجائع وبالخائف وهو الأطمار الرثّة، فهي لباس الجائع فعلاً والخائف فعلاً، وبذلك فإنّ الاستعارة هي تمثيل لحال الأشياء في الكون .

٤ - الاستعارة والنظرية الإدراكية :

يلفت انتباه الباحث في نظرية ابن جنّي النحوية تفصيله القول في درجات المجاز في اللغة، فقد ذهب في باب كامل من أبواب كتاب الخصائص إلى أنّ المجاز أوسع ممّا يذهب إليه الوهم، وعنون هذا الباب بباب "في أنّ المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة"، وقال في إحدى فقراته : " قام زيد بمنزلة قولنا خرجت فإذا الأسد، ومعناه أنّ قولهم خرجت فإذا الأسد تعريفه هنا تعريف الجنس كقولك الأسد أشدّ من الذئب وأنت لا تريد أنّك خرجت وجميع الأسد التي يتناولها الوهم على الباب، هذا محال

---

(١) الإيضاح ،شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧١ ص٤٠٨-٤٠٩.

واعتقاده اختلال، وإنّما أردت فإذا واحد من هذا الجنس بالباب، فوضعت لفظ الجماعة على الواحد مجازاً لما فيه من الاتّساع والتوكيد والتشبيه : أمّا الاتّساع فإنّك وضعت اللفظ المعتاد للجماعة على الواحد، وأمّا التوكيد فلأنّك عظّمت قدر ذلك الواحد بأن جئت بلفظه على اللفظ المعتاد للجماعة، وأمّا التشبيه فلأنّك شبّهت الواحد بالجماعة لأنّ كلّ واحد منها مثله في كونه أسداً"(١) . إنّ هذا المبدأ اللساني العامّ يتجلّى في الفكر النحوي القديم ليفسّر به أصلاً من أصول الاستعمال والتداول، فقد بسط ابن جنّي هذا المبدأ لفهم الأصل الذي عليه أنبت جملة من الأعمال القولية وفي صدارتها التوكيد، فذهب بوعي نظري حادّ وبقول صريح إلى أنّ العلّة التي بها نفسّر التوكيد أو التمييز أو البدل أو نحوها من الأعمال القولية التداولية(٢) إنّما هو المجاز في اللغة، وهو استعمال ناجم عن خوف المتكلّم ممّا قد يحصل من لبس في تقبّل المعاني، وفهم المقاصد، يقول في نفس السياق : " وكذلك قولك ضربت عمراً مجاز أيضاً؛ وذلك أنّك إنّما فعلت بعض الضرب لا جميعه، ولكن من جهة أخرى وهوأنّك إنّما ضربت بعضه

---

(١) ابن جنّي ،الخصائص ،تحقيق محمّد علي النجّار ،دار الهدى بيروت د-ت ٢/ ٤٤٨-٤٤٩ .

(٢) المقصود بالعمل التداولي التركيب النحوي منظوراً إليه من جهة تأثيره في المخاطب ومن جهة الإقناع انظر شكري المبخوت ، إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية ، مركز النشر الجامعي وكلية الآداب منّوبة – تونس ٢٠٠٦ ، ص ١٥٣ .

لا جميعه، ألا تراك تقول ضربت زيداً ولعلّك إنّما ضربت يده أوإصبعه أوناحية من نواحي جسده (...) ولهذا ما يحتاط بعضهم في هذا النحوفيقول ضربت زيداً جانب وجهه الأيمن أوضربته أعلى رأسه الأسمق "(١). إنّ تفسير ابن جنّي للوظائف النحوية بالاستناد إلى المقولات المنطقية التي كانت تسوس علم أصول النحو وتعليل قواعده(٢) وبالاستناد إلى ماتمليه ضرورات التواصل من تدقيق في إدراك المقاصد والمعاني يمثّل في تقديرنا لبنة هامّة في تاريخ الفكر اللغوي الإنساني عامّة، لبنة سيبنى عليها مفهوم ديناميكية اللغة في الاستعمال، وحركية الأعمال القولبة مقابل استقرار الوظائف النحوية البنيوية . وقد ادرك المحدثون أنّ اللغة ليست بنظام من الأصوات والأبنية والتراكيب والمعاجم والدلالات، وليست بمنظومة من الكفايات والاقتدارات التوليدية **الإبداعية** فحسب بل إنّها أكثر تعقيداً من ذلك كلّه :إنّ اللغة **نظام** من التقاليد القولية **ديناميكي** متحرك، ويعني النظام الديناميكي أنّ التراكيب اللغوية الإبداعية (بالمفهوم التوليدي)

---

(١) م.ن ص ٤٥٠ .

(٢) من المعلوم أنّ تاريخ العلوم قد شهد انتقالاً إيبستيمولوجياً منذ القرن الرابع للهجرة من تقعيد العلوم إلى تأصيلها وفلسفتها بواسطة علم المنطق فكان منطق الفقه مولّداً لأصول الفقه ومنطق النحومولّداً لأصوله ،وقد أكمل ابن خلدون هذه المنظومة بابتكار علم منطق التاريخ الذي هوعلم الاجتماع المدني والعمران البشري .

ليست بقارّة إذا نظرنا إليها نظرة "دياكرونية" زمانية وإنّما هي تراكيب متحرّكة متطوّرة بتطوّر خصائص الإدراك التي يستخدمها مستعمل اللغة في تنظيم الأشياء من حوله .إنّ اللغة الطبيعية الملتحمة بالفضاء الجغرافي والتاريخي والثقافي وبأنماط العيش والتفكير والسلوك هي أوّلاً نظام متحرّك من التقاليد اللسانية، وهي ثانياً عالم متفاعل العناصر من **"اللسنيات"**(١) والعبارات الجاهزة والمجازات التي يحيا بها المجتمع . هي فضاء من **العادات اللغوية**، وتعني العادات والأعراف الأبنية اللسانية التي تكيّفها كلّ لغة بحسب إدراكها للموجودات، وإحساسها بالأبعاد، ويمكن لا محالة أن تجدها في المقولات المنطقية العالمية ولكنّ كلّ لغة تصنعها وتشكّلها في أبنية وصيغ خاصّة بها، وهي جزء ممّا سمّاه دي سوسير تنظيم الواقع وتقطيعه، لكنّه لم يتوسّع في تعميق هذه الفكرة اللسانية على النحو الذي أنجزه اللسانيون التداوليون من بعده، حين بيّنوا اختلاف اللغات في استعمال مقولة العدد (المثنّى في العربية وأنماط التعبير عن الجموع وصيغ الأفعال ودلالات المزيد) ومقولة الكمّ (التصغير والتقليل والتكثير) وحين بيّنوا أنّ المجاز مثلاً مكوّن رئيس من مكوّنات الكلام

---

(١) جمع مفردها لسنية وهي وحدة معجمية خاصّة بلغة من اللغات ، تحمل ثقافتها ورواسب عاداتها اللغوية وتمثيلها للعالم وتعبيرها عن صلة المتكلّم بالفضاء الاجتماعي .

الطبيعي، وأنّ ربط فكرة العدول باللغة الأدبية فكرة غير سليمة إذ إنّ المتخاطبين في نفس اللغة يعدلون عن الحقيقة إلى المجاز في أغلب مقامات التخاطب، وأنّ اللسنيات (أسماء الأفعال - العبارات المسكوكة - الإشارات المقامية والمقالية) والعبارات الجاهزة والاستعارات النائمة التي دخلت في المشترك اللغوي تؤلّف القسم المهيمن على التخاطب اليومي، ومن ذلك على سبيل المثال أنّ الاستعارات التوجيهية والحسيّة أي الاستعارات التي تشير إلى الجهات تكوّن الجانب الأساس من التنظيم الطبيعي للكلام، فقولك **ارتقى زيد إلى درجة أعلى** مجاز لأنّك استعرت جهة العلو دون أن يكون ذلك دالاّ على الارتقاء الحقيقي في المكان، وكذلك إذا قلت **ذقت الأمرّين**(١) فقد استعرت فعل الذوق في الكلام الطبيعي دون أن يكون المرجع حسّياً. وفي هذا السياق يقول فرانسوراستيه: " إنّنا نرفض تعريف الصور المجازية استنادا إلى مفهوم الانزياح؛ لأنّنا نعتبر اللغة العادية كإبداع للتقليد النحوي المؤسّس على التصوّر الإحالي للغة التي بإمكانها قول الحقيقة ماعدا أمثلة النحو مثل سقراط موجود والقطّة تحت الطاولة . لم يستطع أحد عرض نصّ مكتوب

---

(١) وهواستعارة مثّل لها القدامى بقوله تعالى : ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾، واختلفوا في تحديد نوعها فعدّها الزمخشري استعارة عقلية والسكاكي استعارة حسيّة على نحوما ذكرنا أعلاه.

بلغة محايدة وعليه فكلّ نصّ ينتمي إلى جنس ويدخل بالتالي في نطاق خطاب (تشريعي، بيداغوجي إلخ ...) يعكس بواسطة معايير التفاعل الممارسة الاجتماعية التي يتموضع فيها(١).

والحاصل ممّا نحن فيه أنّ هذا المنعرج الذي عرفته اللسانيات التداولية هو الذي ساعد علماء النفس الإدراكيين وفي صدارتهم إيليانور روش على أن يسهموا في وضع اللبنات الأولى للفكر الإدراكي في مجال الاستعارة، إلاّ أنّنا نلفت انتباه القارىء إلى أنّ هذه الباحثة ليست نقطة البداية في علم الدلالة الطرازي، فقد استمدّت كغيرها من علماء الفنون واللسان التداوليين وعلماء الدلالة التأويلية مبادىء هذه النظرية من أعمال لودفيك فيتقانشتاين وخاصّة جهده في حصر مفهوم علم الدلالة الطرازي، يقول عبد الرزاق بنّور : " إنّ أوّل من قدّم نظرية الطراز المعروفة كذلك باسم الأجناس الطبيعية كان بوتنام الذي لا يخفى تأثّره بفتقانشتاين (...) ويعتبر(كذا) بوتنام أنّ المعنى لا يوجد في رأس المتكلّم، بل أنّ المعنى قضيّة كلّ المجموعة اللغوية فيركّز على الطبيعة الاجتماعية للرمز اللغوي وعلى تقاسم الأدوار في العمل اللغوي من خلال التواضع المردف لكلّ عنصر من عناصر الاستعمال لذلك ينبغي

---

(١) فنون النصّ ص ١٨٠ .، بل إنّ أمثلة النحوعينها تقوم على المجاز وقد ذكرنا قول ابن جنّي في الفقرات السابقة.

كي نقرّر أنّ إن كان "ماء "ينتمي إلى عائلة السوائل، وإن كان "برتقال" ينتمي إلى عائلة الحوامض أن نقدّم وصفا نموذجيا لهذا الجنس يتواضع عليه أفراد المجموعة اللغوية "[١] .ولعلّ المنعرج الذي عرفته اللسانيات حين صنّفها رونالد لانقاكار ضمن العلوم الإدراكية أسهم في انفتاح الدرس البلاغي على المقولات الإدراكية[٢]. ويمكن من جهة ثالثة أن نعدّ تأسيس جورج لايكوف لمفهوم الكفاية التصوّرية في نشاط الاستعارة، وهومفهوم إدراكي بالأساس، يكوّن إحدى اللبنات الأساس في التفكير الإدراكي المتّصل بأبنية المشابهة[٣] عموما وبالاستعارة على وجه التخصيص، وهويذهب في كتابه الشهير الذي أصبح عدّة في البحث البلاغي الحديث إلى أنّ للتفكير البشري عامّة قدرة ذهنية على بناء الأبنية الرمزية بالانطلاق

---

(١) ضمن مقدّمة لتحقيقات فلسفية ترجمة عبد الرزاق بنّور، المنظّمة العربية للترجمة بيروت لبنان ٢٠٠٧ ص ٨٨-٨٩ .

(٢) يعدّ رونالد لانقاكار (R.Langacker) مؤسّس المدرسة النحوية الإدراكية منذ ١٩٧٦ ،وقد صاغ نظريته النحوية بوجه خاصّ في كتابه المعروف بأصول النحو الإدراكي ، واستعان في بلورة نظريته بالسيكولوجيا القشطلطية وذلك لضبط الصلات الوثيقة بين البنية اللسانية والبنية الإدراكية إذ يذهب إلى أنّ إنتاج البنية اللسانية إنّما تتحكّم فيه آليات الإدراك البصري والسمعي.

(٣) انظر بوجه خاصّ George lakoff : Women, fire and DangerousThings, University of Chicago Press, ١٩٨٧

من القاعدة الأساس، ينطلق التفكير في الاستعارة من الإطار العامّ الذي يندرج فيه هذا النشاط الذهني اللغوي وهو بنية المشابهة، والمشابهة في أصل النشاط الذهني عمل تنظيمي يدرك من خلاله الإنسان العالم ويسطر عليه بتنظيمه وتخزينه، وذلك لأنّ المتكلّم لا يمكنه أن يسمّى العالم إلاّ من خلال مقولته وتنظيمه ضمن أطرزة(١). ولا يمكن للسامع أن يفهم المتكلّم حين يستعير معنى من مجال إلى آخر ما لم يكن له طراز يصنّف من خلاله ذلك المعنى، ويذهب لايكوف وسائر العلماء الإدراكيين أوّلا إلى أنّ الأنظمة التصويرية أو التمثيلية أو المجازية في اللغة الطبيعية هي نتاج تفاعل بين الأطرزة(٢) الذهنية المنغرسة في المخيّلة أوالذاكرة اللغوية المشبّعة بالتقاليد

---

(١) ينظر في المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢) نستعمل مصطلح الطراز أو المنوال بمعنى واحد ويجدر بنا أن نفسّر هذا المصطلح لأنّنا نعدّه من المصطلحات الهامّة في تأصيل المناهج التحليلية ونقلها ،وصياغة ما تتضمّنه من معارف صياغة تأليفيّة جامعة . وقد اقتبسناه من حقل اللسانيات الإدراكيّة وعلم النفس الإدراكي ، وهما يعرّفان المنوال أو الطراز بكونه مقولة ذهنيّة جامعة للمقوّمات المميّزة للجنس أو للنوع ويعني أفضل ممثّل للنوع في جنسه فهو نموذجه من حيث اشتماله على أبرز الخصائص التي تميّز مجمل أفراده كأن يكون النسر أفضل ممثّل للطير مختزلا أبرز صفاته (انظر عبد الله صولة :المقولة في نظرية الطراز الأصليّة،حوليات الجامعة التونسيّة العدد ٤٦ لسنة ٢٠٠٢ ص ٣٦٩) وجاء في لسان العرب مادّة طرز : الطراز : الجيّد من كلّ شيء ، فالطراز يمثّل في الذهن مرجعية إدراكية أي معرفية ترتّب في ضوئها أفراد المقولة ترتيبا تفاضليا بحسب شدّة مشابهتها للطراز أوضعفها. ويمكن أن نستفيد من مقولة المنوال الطراز في تعريب النظريات العلميّة في مجال البلاغة =

الثقافية والتجارب الإنسانية المستمدّة من البيئة والمحيط، وهذا التفاعل هوإسقاط لهذه الأطرزة على التجارب المعيشة في البيئة .وسنعود في الفقرات اللاحقة إلى مفهوم **الإسقاط** بما هومفهوم أساس من مفاهيم النظرية الإدراكية في حقل الاستعارة :فالاستعارات والكنايات تكوّن في كلّ لغة من اللغات الأبنية الذهنية المجرّدة، Idealized Cognitive Models نماذج مثالية وقد عدّها لايكوف، وهي تتفاعل والتجارب الإنسانية لا الفردية الذاتية بل التجارب الاجتماعية والأنساق المكوّنة لتاريخ الفكر . وتكوّن هذه الاستعارات العامّة غير الإبداعية أي الاستعارات اليومية أطرا لإدراك الموجودات .

إنّ المستعار أو المشبّه به في النظرية الإدراكية هو عملية ذهنية يتمّ فيها إسقاط طراز من الأطرزة أو نموذج من النماذج المثلى المنغرسة في الذهن

= بترتيبها وحذف ما فيها من تكرار واعتماد مبدأ الأسبقيّة في الإنتاج المعرفي ، وتطبيق مبدأ الاقتصاد في التعريف والاقتراب من المناخ الثقافي العربي الإسلامي ، ومراعاة التشابه بين التجارب ،والظروف العاملة على إنتاج النصّ الأدبي ، وغير ذلك ممّا تفيدنا به نظرية الطراز، ويمكن العودة للبحث في صناعة المنوال إلى :

- أرسطو ، كتاب المقولات ،تحقيق وتقديم فريد جبر دار الفكر اللبناني بيروت ١٩٩٩ .
- مارك لايكوف وجورج جونسون، الاستعارات التي نحيا بها ،تعريب عبد المجيد جحفة دار توبقال للنشر الدار البيضاء ١٩٩٦.

على موضوع من الموضوعات أي على المستعار لها والمشبّه. وهذا الإسقاط نوعان : إسقاط قاعدي وهو أن يكون المشبّه به هو الطراز عينه كقولنا زيد أسد، وإسقاط فرعي، وهو أن نأخذ من الطراز لازماً من لوازمه كقولنا زأر زيد، والفرق بين الطراز وفرعه أنّ الأوّل يخاطب ذهنا لا يمتلك الطراز أي لا يعرفه في حين يخاطب الثاني ذهناً متشبّعا بالمقولة الطرازية، وبهذا التفسير يمكن أن نفهم درجات الاستعارة الثلاث وهي التصريحية والمكنية والترشيحية .

وتذهب هذه المدرسة من جهة أخرى إلى أنّ جميع مفردات اللغة الطبيعية ترجع إلى مقولات محدودة، نستخلصها من العام المنتظم بشكل ما قبلي⁽¹⁾ وهي ثلاثة أضرب :

١ – المستوى الأعلى من المقولات: وإليه يمكن أن نردّ المفردات المستعملة في اللغة والمختزنة في المعاجم، وهي مقولات تتناسب وما يسمّيه

---

(١) E. Rosh : Principles and Categorization in Rosh and Liyod B.eds Cognition and Categorization Hillsdate, New Jersey١٩٧٨. وتعدّ روش صاحبة المحاولات الثانية في التأسيس لنظرية الأطرزة في اللسانيات الإدراكية بجامعة بركلي (Berekley) مع جورج لايكوف وفرنسيسكوفاريلا ،وذلك بعد فيتقانشتاين كما بيّنا ،وقد بيّنت في أبحاثها المتّصلة بالألوان وتنظيمها في الثقافات الإفريقية أنّ الإنسان حين يصوغ المقولة لا يستند إلى تعريفات مجرّدة بقدر ما يستند إلى مقارنة بين الشيء المتحدّث عنه وبين النموذج الذي يعدّه أفضل ممثّل لطراز ذلك الشيء .

القدامى المعاني، وقد وضعوا لها مصنّفات تنتظم فيها هذه المعاني حسب المقولات العليا، ونذكر منها على سبيل المثال كتاب ابن قتيبة المعاني الكبير، ومن أمثلة هذه المعاني نذكر النبات والحيوان والمعادن.

٢- المستوى الأساس : وتدخل فيه الأنواع الراجعة إلى المستوى الأعلى كالشجرة بالنسبة إلى النبات والمعادن النفيسة بالنسبة إلى المعادن، وهي تضمّ سمات مشتركة كثيرة، وهو مستوى يمكن للذهن البشري أن يتصوّره، فنحن قادرون على أن نتصوّر شجرة وفرسا ولكنّنا لا نستطيع أن نتصوّر حيوانا أو نباتا .

٣- المستوى الأدنى : وفيه تندرج المعاني الجزئية أو الفرعية مثل الزيتونة بالنسبة إلى الشجرة أو الذهب بالنسبة إلى المعادن النفيسة . ويمكن أن نرسم هذه المستويات على النحوالآتي :

❋ المستوى الأعلى : إنسان - حيوان - نبات .

❋ المستوى الأساس : رجل - فرس - شجر .

❋ المستوى الأدنى : نزار - فرس صيد - زيتونة .

ففي هذه النظرية يعامل المشبّه به أو المستعار على أنّه نمط أو طراز لا على أساس أنّه أكثر تمثيلا للطراز من المشبّه أومن المستعار له، ولا من جهة كونه أكثر تعبيرا عن الطراز المعنوي كما يذهب إليه القدامى بل من جهة أنّه

هو الطراز عينه . وقد أفاد الدرس البلاغي الإدراكي من هذه النظرية لبناء المفاهيم الثلاثة الكبرى التي سنحلّلها في الفقرات الآتية وهي: التصوّر الاستعاري، والتشاكل الدلالي والبؤرة والإطار .

١ – **التصوّر الاستعاري** : تعرّف ماريا تيريزاه كابريه (Maria Thérèse Cabré) التصور الاستعاري بكونه بناء ذهنياً يكوّنه الفرد أو المجموعة عن شيء من الأشياء دون أن يكون ذلك الشيء موجوداً على الحقيقة،(١) ويذهب لايكوف وجونسون إلى أنّ التصور الاستعاري هو استعمال دلالة ما خاصّة بشيء للتعبير عن شيء آخر : فالماء في اللغة العربية مجال استعاري نفرّع منه أنظمة دلالية مختلفة للتعبير عن المعاني المتّصلة بمختلف مناحي الحياة، وهوإذن بعبارة لايكوف وجونسون من الاستعارات التي نحيا بها : فاسم المكان المحسوس في "المورد والمنبع والمنهل" تتحوّل إلى أسماء استعارية في مختلف الدلالات المكانية، وأفعال" السقي والمتح والنهل والشرب والريّ "تغدوكذلك من الأفعال المجرّدة (غير المحسوسة) في أنشطة مجرّدة من قبيل " استقيت الفكرة من ذلك الكتاب " ونهلت من مناهل العرفان "، ويمكن لهذا المجال أو المعجم المستعار أن تتوالد منه

---

(١) Introduccion a la teoria general de la terminologia ya la lexicographia, per Ewuster, Institut universitari de linguistica Aplicada, Barcelone ١٩٩٨.

معاجم أخرى مضادّة له لكنّها لا تخرج عن دائرته الاستعارية كقولنا "أنا متعطّش إلى سماع خبر سارّ ".فالعطش **تفريع استعاري مضادّ** من مجال الماء والسقي . إنّ الاستعارة بهذه الدلالة الإدراكية الواسعة ليست استعارة أدبية أو شعرية أو إبداعية بل هي جذر مولّد للكلام في مختلف مقاماته، ففي القول (ز) لا يمكن أن نستنتج استعارة بالمدلول البلاغي الضيِّق أي أنّنا لا نجد نقلا لمعنى من استعمال أصلي إلى استعمال يفيد المشابهة :

مثال (ز) ذهب الرئيس الجمهوري بوش الابن وجاء الرئيس الديمقراطي باراك حسين أوباما، وترك له بوش الابن حملاً ثقيلاً لا صديق ولا عدويحسد الرئيس أوباما عليه من أزمة مالية **خانقة تعصف** بأكبر اقتصاديات العالم إلى نقاط وملفّات **ساخنة** في أفغانستان والعراق وكوريا الشمالية والصراع العربي الإسرائيلي "(١). نلحظ في هذه الفقرة الصحفية الخالية مبدئيا من الوظيفة الشعرية(٢) أنّ المتكلّم يستمدّ جانبا من معجمه من استعارة كبرى في ثقافة اللغة العربية هي "حركة الريح "، ويمكن أن نذكر نماذج من الاستعمال السيّار المشتقّ من هذه الاستعارة :

---

(١) جريدة الجزيرة الثلاثاء ١٨ صفر ١٤٣١ ص ٢٨ .

(٢) أستعمل الوظيفة الشعرية بالمعنى الذي جاء به ياكبسون في وظائفه الستّ .وهي الإخبارية والماورالغوية والتعبيرية والتنبيهية والمرجعية والشعرية .

مثال (ق) هذه الإنجازات ذهبت في مهبّ الريح.

مثال (ع) هبّت عليه ريح الحريّة.

مثال (غ) سمعنا عاصفة من التصفيق . ومن جهة أخرى نلحظ أنّ التصور الاستعاري في رأي لايكوف وجونسون ينطبع في الإدراك البشري وفق الاتجاهات والأبعاد المحسوسة فتصبح الاستعارات بذلك نوعا من **الاسترسال الدلالي** : " ركض الدابّة ركضاً ضرب جنبيها برجله (...) وفلان يركض دابّته وهو ضربه مركليها برجليه فلمّا كثر هذا على ألسنتهم استعملوه في الدوابّ فقالوا هي تركض كأنّ الركض منها".(١) ويميز لايكوف وجونسون بين ثلاثة أنماط من التصور الاستعاري : التصوّر الاتجاهي: يمين – شمال – تحت – فوق – أمام – خلف- قبل – بعد – حذو- بعيد –بين – وراء إلخ... ففي هذا التصوّر (Orientational Metaphors) تتّفق عامّة الشعوب واللغات على أنّ الأعلى هو الأفضل وعلى أنّ الأسفل هو الدوني، ويستعيرون مادّة " سقط " للدلالة على الوقوع في الرذيلة أو ما يشبهها : وقعت في الفخّ – سقطت في الامتحان – ارتقيت إلى رتبة أعلى- خدش كرامتي ". ولا نتّفق في هذا المضمار مع عبد الإله سليم في قوله : " والملاحظ أنّ الاستعارة الاتّجاهية القائمة على

---

(١) لسان العرب مادّة ركض .

الثنائية فوق/ تحت لا تقوم فقط بترتيب كلامنا ومنحه المرونة الضرورية بل تقوم كذلك بتنظيم أعمالنا ومعتقداتنا، فالموتى مثلا يدفنون تحت، وآدم حين ارتكب المعصية جاءه الأمر الإلاهي الصارم بالنزول إلى تحت، والأعلام تنكّس عند النكبات وترتفع عالية عند السعادة والنصر إلخ... لذلك تتعدّى الاستعارة اللغة إلى مجال أوسع هو مجال الفكر الذي يتحكّم في لغتنا وأعمالنا "(١). ونلحظ أوّلا أنّ الباحث لم يتحرّر في أطروحته هذه من ربقة الفصل بين اللغة والفكر، وإن كان مجال حديثه أي البلاغة الإدراكية يقوم أساساً على أنّ اللغة هي عينها معمار الفكر ؟ فالاستعارة الاتجاهية هي عينها إدراك للعالم من خلال الثنائية هذه : أي ثنائية فوق وتحت، وهي ثنائية منغرسة في الخطاطات الذهنية للدماغ البشري وهو ما لم يبيّنه عبد الإله سليم، نعم لم يبيّن أنّ نظام الموجودات الذي استدلّ به الإنسان على الجهات الاستعارية هو الأساس الذي انبنت عليه التراكيب اللغوية وأنساقها في عامّة اللغات والثقافات فضلاً عن أنظمة التمثيل : وقد امتدّت إلى الشعر فوجدنا الشعراء يبنون الصورة كلّها على هذه الثنائية لأنّها مندرجة في عصب نظام التمثيل أو المتخيّل الشعري.إنّ نظام التمثيل في أيّة لغة من اللغات الطبيعية يستخلص من المعدّل العامّ لاستعمال المشبّه

---

(١) بنيات المشابهة في اللغة العربية ص ٧١ .

بهم والمستعارات من الصور في جميع الصور المستعملة على امتداد تاريخ شعريّة النصّ في ثقافة من الثقافات، وهذا المعدّل العامّ هوالتصوّر الاستعاري عينه . فإذا نظرنا في بيت بشّار بن برد الذي يقول فيه (من الطويل):

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فإنّنا لا نستخلص من تحليله أنّ التشبيه التمثيلي هو عملية موازنة بين نظامين من العلاقات بين الأشياء أوهو تشبيه حركة تصويرية بحركة تصويرية أخرى فحسب، بل نستخلص منه كذلك - وهو أهمّ في تقديرنا – المزاوجة التي أحدثها الشاعر بين **الإدراك السفلي والإدراك العلوي** أوبين الأرض والسماء، وهي مزاوجة يستمدّها الشاعر من نظام التمثيل المركوز في الخيال الشعري العربي عامّة، وهذا التصوّر يتحقّق في مختلف الأغراض بصور شتّى منها التناظر بين المرأة والقمر في الصور الغزلية مثلا، وبين الممدوح والسحاب والمطر في صور المدح وغيرها من ضروب التناظر.

أمّا ثاني أنماط الاستعارات بعد الاستعارة التوجيهية فهو التصوّر الاستعاري الوجودي .

مثال (س) نصّت الظبية جيدها .

مثال (ط) نصصت في السير.

مثال(ص) نصّ المتاع .

مثال (ش) نصّ الحديث إلى فلان

مثال(ض) نصصت الرجل(١) .

حين ننظر في هذه الأمثلة الأربعة نلحظ أنّ الفعل نصّ يتسع لثلاثة أنواع من الدلالات : النوع الأوّل هو الدلالة الحسيّة في (س) و(ص) والنوع الثاني هو الدلالة الحسيّة المتّجهة إلى الدلالة المجرّدة في (ط) والنوع الثالث هو الدلالة المجرّدة في (ش) و(ض) .فدلالة نصّت الظبية جيدها أونصصت المتاع جعلت بعضه فوق بعض هي الدلالة الأولى غير الاستعارية وهي الرفع والإبراز، وهي دلالة الوجود المادّي أو الحسّي، هي دلالة التأثير الفيزيولوجي في بناء المعنى من خلال الرغبات والإفرازات والمنبّهات الحسيّة والمحفّزات الجسمانية . وقد اتّجهت في النوع الثاني (ط) إلى إبراز معنى الاستقصاء، وهو مندرج في الرفع والإبراز، ثمّ اتجهت الدلالة في النوع الثالث (ض) إلى الاستعارة.

وأمّا ثالث أنماط الاستعارة فهو النمط التصويري، وإليه يمكن أن ننمي مختلف أشكال الاستعارة الإبداعية أو الأدبية، وقد ميّزها م.ملتان من سائر الاستعارات التي سمّاها استعارات عرفية، وذهب إلى أنّ

---

(١) انظر اللسان مادّة نصّ .

الاستعارات الإبداعية هي الأصل الذي تردّ إليه الاستعارات العرفية، وأنّ انتقال المتكلّم من نموذج إدراكي إلى نموذج آخر (إدراك الزمن- إدراك المكان- إدراك الحدث- إدراك الصوت غير العادي- إلخ....) ينشّط ذاكرته بشكل تلقائي أوبنبضات دماغية تنتجها حركة التفاعل بين الذهن والعالم الخارجي، أي العالم المؤثّر في الحواسّ (النظر- السمع – الذوق – اللمس – الحدس – الشمّ) فتفكّ العلاقة القديمة بين المستعار والمستعار له في الاستعارة النائمة ويعاد بناء التجربة الاستعارية، وتبرم علاقة جديدة تنبثق منها استعارة إبداعية (١).

وبعد فإنّ النظرية الإدراكية تقابل تمام المقابلة النظرة المنطقية الاستبدالية التي ترى في الاستعارة صنعة خارجية وقيمة جمالية تضاف إلى المضمون الذي يمكن التعبير عنه دون استعمال للاستعارة، وإنما النظرية الإدراكية تعامل الاستعارة بما هي عملية عقلية فكرية وفي هذا السياق لا أوافق جابر عصفور في قوله إنّ النظرية الاستبدالية ترى الاستعارة من زاوية العقل، وإنّها ترفض الخيال والعاطفة بل ينبغي أن ندقّق التعريف

---

(١) M:Maltin : Cognition, CBS, College Publishing, New York ١٩٨٣ p ٦٧.

لنقول إنّ النظرية الاستعارية الكلاسيكية في جميع اللغات والآداب ترفض المسالك الجديدة في استعمال الجذور الاستعارية⁽¹⁾ لفهم الواقع .

٢- **التشاكل** : بيّنت النظرية الدلالية البنيوية أنّ الكلمة تتضمّن حزمة من المعينمات يمكن تفكيكها وإعادة بنائها في كلمات أخرى ووفاق معانم أخرى، وتستفيد النظرية الإدراكية في دراسة الاستعارة من علم الدلالة البنيوي في صيغه المختلفة التي أسّسها هايمسلاف ثمّ طوّرها قريماص وكورتبس وانتهت إلى وضع أنظمة دلائلية تشكلن المعنى غاية الشكلنة . ونلحظ أوّلا أنّ الكلمة ليست الوحدة المعنوية الدنيا وإنّما الوحدة الدنيا هي المعينم أو السمة الجنيسية أي السمة التي تنتظم مع غيرها لتكوّن الجنس، فللأسد سمات جنيسية مختلفة منها أنّه حيوان وأنّه آكل لحوم وأنّه يزأر .ويمكن أن نصنّف السمات الجنيسية أوالمعانم من جهة لزومها للكلمة أو تحرّرها منها نوعين، إذ نجد سمات ملازمة للكلمة لا تستقيم دلالتها إلاّ بها ولا تتميّز من غيرها إلاّ بها كالذكورة بالنسبة إلى الرجل أو الأنوثة بالنسبة إلى المرأة، ونجد سمات أخرى تشترك فيها مجموعة من الكلمات

---

(١) انظر في تعريف الجذور الاستعارية مثلا توفيق الزيدي جدلية المصطلح والنظرية النقدية ط قرطاج تونس ٢٠٠٠ .

كصفة الإنسان بين المرأة والرجل⁽¹⁾، ومن هذه السمات الجنيسية ما هو عرضي تعاقدي تحدّده الثقافة وتتواضع عليه المجموعات البشرية .

أمّا الكلمة فإنّ دلالتها تتحدّد بحسب التركيب الذي تدرج فيه، وهي تتفاعل وفق ما يقتضيه التركيب من استعمال لمعينمات دون أخرى .ونضرب مثالا أوّل لنفهم مسألة اختلاف الدلالة من سياق إلى آخر، أي من تركيب إلى غيره :

مثال(ك) – أغلق الباب .

إنّ عبارة الباب في هذا المثال تتضمّن حزمة من المعينمات بعضها جنيسي أي ملتصق بكلمة باب وفي صدارتها مادّة **غلق** لذلك لا ندري بالتحديد ما المعنى السياقي أو التداولي المقصود بهذه الجملة، وبعض هذه المعينمات متنقّل يمكن تنشيطه في هذا السياق أو ذاك :

مثال (ك١) :

أ- أغلق الباب الخلفي للحديقة.
ب-أغلق الباب في وجوهنا .
ج- أغلق الباب دون خاتمة .

---

(١) انظر A.J. Greimas : Du sens ed Seuil Paris ١٩٧٠ pp١٢٠-١٣٧. وكذلك F . Rastier: Sémantique interprétatiive, PUF Paris ١٩٨٧ PP٢٥-٥٦.

ويمكن لهذه السمات غير الملتصقة بالكلمة أن تنتقل بيسر من سياق إلى سياق فتتحقّق الاستعارة أو غيرها من وجوه المجاز

مثال (ك٢) أغلقت الباب بالمفتاح : إنّ إضافة كلمة مفتاح إلى التركيب توجّه الدلالة إلى (أ) أو(ب) من ك١ .

مثال (ك٣) أغلقت باب الاجتهاد بالمفتاح : إنّ إضافة كلمة الاجتهاد تتفاعل مع سائر عناصر التركيب فتوجّه الدلالة إلى (ب) من ك١ وتلغي الدلالة (أ) من ك١ .

ويتّفق الدارسون على أنّ هذه السمات الجنيسية المتحرّرة من نواة الكلمة وجاذبيتها هي التي تنشّط الكلمات وتمكّن من ابتكار الاستعارات التي نحيا بها أو الاستعارات الأدبية . إنّ المعينمات التي تمكّن من استعمال الاستعارة في كلمة الأسد مثلا ليست المعينمات اللصيقة بالأسد أي معنى اللفظ بعبارة عبد القاهر الجرجاني كالحيوانية وإنّما هي المعينمات الثقافية التي تواضع عليها المتخاطبون .

مثال (ل)

لا تعجبي يا سلم من رجل *** ضحك المشيب برأسه فبكى

إنّ فعل ضحك يحمل من السمات الجنيسية الأساس ما يجعله من ناحية البنية الموضوعية خاصّا بالإنسان : فالفاعل في فعل ضحك هو الإنسان، مثله في ذلك مثل سائر الأفعال والأسماء في اللغة، ففعل خرج مثلاً يحمل الاتجاه من إلى، وكذلك مثلاً فعل وقف يحمل الاتجاه من الأسفل إلى الأعلى، وصيغة تفاعل مثلاً تحمل الإسناد إلى فاعل جمع أومثنى على الأقلّ . ولكنّ هذا الفعل من ناحية البنية الاستعارية مسند إلى غير العاقل (المشيب)، فقد تعطلّت سمته الجنيسية الأساس، وتخلّت عن مكانتها، وهذه الصلة تطرح بإلحاح شديد عند الدارسين المهتمّين بالاستعارة من الناحية الإدراكية مشكلة العلاقة بين البنية النحوية والبنية الاستعارية أوالدلالية التأويلية ؟ وهو ما نجده مثلاً عند راي جاكندوف في أغلب كتاباته(١)، فما هي السمات الجنيسية التي تتعلّق بفعل ضحك وتسمح لنا بأن نستعيره لإسناده إلى المشيب. أمّا الجواب الأوّل فهوذوقيمة استبدالية لاتنفعنا في هذا السياق، وهي أنّ المشيب يسخر من الإنسان فيضحك، ولا إخالنا نجانب الصواب إذا قلنا إنّ هذا التفسير لا يسمح لنا باستخلاص القاعدة الإنتاجية العامّة التي يمكن أن نطبّقها على عامّة الأمثلة. إنّ القاعدة العامّة التي تضعها الدلالة التأويلية في بناء الاستعارة أنّ السمة

---

(١) انظر خاصّة : R Jackendoff: Language, consciousness, culture : Essays on Mental Structure MIT Press,Cambridge ٢٠٠٧

الجنيسية التي تجلب من مستعار ما أي المتعلّق لا يمكن أن تفهم مسلكها الإدراكي إلاّ من خلال السمة الجنيسية المضمّنة في المستعار له : فللمشيب وهو المستعار له جملة من السمات الجنيسية ينبغي أن ننتقي منها تلك التي تتفاعل وفعل ضحك، وهي في هذا المضمار اللمعان، فاللمعان **ملفّ** من الملفّات المخزونة في الذاكرة التصويرية، ويمكن الوصول إليه عبر ما سمّاه كروبار **بالإسناد الاستعاري**⁽¹⁾ .وإذا فتحنا هذا الملف فإنّ القائمات التي يتضمّنها أو الموادّ التي يحتوي عليها تضع بين أيدينا جملة من الاختيارات لبناء الاستعارة، ومن يعد إلى تاريخ الاستعارة في الشعر العربي يجد أنّ الشعراء قد تعاوروا استعمال هذا الملفّ في أغراض الشعر الوصفية المختلفة. وإن كنّا لا نوافق عبد الله صوله في ما ذهب إليه من معرفة القدامى بالمعجم الاستعاري⁽²⁾ فالبلاغة القديمة لم تطرح الأسئلة الإدراكية التي تحاول فهم مصادر الاستعارة: من أين يأتي المستعار؟ لم يختار المتكلّم

---

(١) عد إلى ، ١٩٦٥ J.S. Gruber: Studies in Lexical Relations North Holland Amesterdam

(٢) في مقال مرقون بعنوان البلاغة العربية في ثوب عرفاني ،ويعني كما ذكرنا في الفقرات السابقة بالعرفاني الإدراكي، وهويذهب رحمه الله إلى أنّ القدامى ينعتون المعجم الاستعاري بما ينعت به الطراز في علم النفس الإدراكي (العرفاني cognitive psychology) "إذ هي عندهم قائمة في الذهن ، ومن ثمّ فهي شائعة بين الناس تنظم معارفهم وتشكّل مرتكزات بالنسبة إليهم " ويذكر نماذج من القائمات التي ذكرها الجرجاني في كتاب الوساطة كتشبيه الحسن بالشمس والبدر والجواد بالغيث والبحر ص ٣ .

مستعاراً دون غيره ؟ ما هي النوافذ التي يدخل منها المتكلّم إلى القائمات التي يأخذ منها المستعارات ؟ ما هي الصلة التي تربط الأطرزة بعضها ببعض ؟

٣- البؤرة والإطار : يذهب أهمّ علماء النظرية الإدراكية إلى أنّ لكلّ استعارة مهما يكن نوعها بؤرة وإطاراً، أمّا البؤرة (Focus) فهي الكلمة المستعارة نفسها، ولا يمكن لقارئها أن يستنتج منها إلاّ المعنى المنطقي أوالقياسي في بنية المشابهة، بل لا يمكن أن يستنتج منها الخطاطة الذهنية التي أنتجت الكلمة، ويؤدّي الاقتصار على فهم البؤرة إلى الخلط مثلا بين المعنى والموضوع أو التيمة أو الغرض(١) على النحو الذي نبيّن في الفقرة

---

(١) انظر في خصوص الفرق بين المعنى والغرض والتيمة محمد هشام الريفي ، في الغرض ، ضمن مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم ،منشورات كليّة الآداب منّوبة تونس ١٩٩٣ ، فالغرض هو المنزع النفسي أوالقوّة الناظمة للقول وللأعمال القولية التي تحقّق المقصد من إنجاز تلك القوّة ، فالعتاب والاعتذار والهجاء أغراض أي مقاصد للقول وليست مواضيع والفرق بينهما أنّ الموضوع أوالتيمة هوالمضمون الذي عليه مدار الغرض أوفيه ينظم الغرض كوصف المهجوبالبخل أورسم صورة المحبوب في غرض الغزل أووصف الممدوح محاربا أوالحديث عن أخلاقه ومناقبه . والأغراض في الشعرية العربية القديمة أربعة :رغبة ورهبة وطرب وغضب وعنها تفرّعت الأغراض التي ينبى عليها جنس القصيد مثلا .ولمّا كانت المواضيع محدودة مرتبطة بالسنّة الثقافية وبصورة الممدوح مثلا أوصورة الحبيب في الغزل أوصورة المهجوفي الهجاء فإنّ على الشاعرأوالناثر أن يتصرّف في الجهة التي منها يدخل إلى الموضوع كي ينال استحسان السامع ويؤثّر فيه ،وهذه الجهة هي المعنى الشعري أوالمعنى الأدبي عامّة.

اللاحقة . وأمّا الإطار (Marque) فهو النسيج الاستعاري الذي يحاك حول البؤرة في الاستعارة المكنية أوالمرشّحة خاصّة .

مثال(ن)

وإذ هصرنا فنون الوصل دانية *** قطافها فجنينا منها ما شينا

ابن زيدون

إنّ البؤرة الاستعارية في هذا البيت هي معنى التلذّذ بالوصل، وقد حملتها عبارة جني الثمار أو القطوف، ويمكن للقارىء أو السامع أن يعيّن هذه البؤرة بيسر، فتكون تلك القراءة **استبدالية** أي أنّه يتلقّى العبارة ويستبدلها عبر خطاطة المعنى الغزلي المنغرسة في ذهنه بالمعنى الحقيقي أوالحرفي وهو التلذّذ بالوصل. إلاّ أنّنا نلحظ أنّ تعيينه للاستعارة يقع به دون فهم البنية الفكرية المولّدة للاستعارة أي النصّ الثقافي المنجب(١) للإطار الاستعاري أو خصائص محتوى الوصل وصورته كما يفكّر فيهما الشاعر أوكما يدركهما. إنّ الإطار الاستعاري هو النظر إلى الصورة من زاوية الدلالة التأويلية، وهي الدلالة التي تبني البعد النصّي للمجازات(٢). ويتكوّن الإطار في المثال (ن) من الجهات الاستعارية التالية:

---

(١) في خصوص تعريف النصّ المنجب انظر كتابنا الخطاب الأدبي وتحدّيات المنهج ص ص ٢٤٧-٢٤٨ .

(٢) انظر فرانسوا راستيه ، فنون النصّ وعلومه ص ١٩٨،

١- اختيار الشاعر ضمير المتكلّم بصيغة الجمع المناسب لمرحلة الوصال الدالّ على التحامه بالحبيب .

٢- استعارة صيغة جمع دون صيغة المفرد في عبارة فنون لما يتميّز به فكر الشاعر من إدراك كمّي للمتع ومن تنوّع في علاقات الوصل، والإحساس الكمّي بالوجود يفسّر اختار الشاعر الصرفي والتركيبي، ولكنّنا نلحظ في هذا السياق أنّ النظرية الاستبدالية لا تحفل كبير احتفال بالأطرزة الذهنية التي تولّد االأبنية الصرفية التي تحتوي المستعار

(فنون الوصل) فالتمتّع بالكثرة في هذه الاستعارة معنى متفرّع عن طراز من أطرزة التفكير البلاغي في البلاغة الكلاسيكية، العربية وغير العربية على السواء وقد أسّس أرسطو التفكير في هذا الطراز ونظّر له ضمن المواضع الخطابية أي البلاغية بما سمّاه موضع الكمّ (TOPIC)، وقد عاد إليه مؤسّسو البلاغة الجديدة للتوسّع في بيان مفهومه وآليات استعماله في الخطاب الأدبي وغير الأدبي(١). واستعمال

---

(١) انظر في خصوص أنماط الحجج والمواضع العامّة أي الطوبيقا : حجج الكمّ والكيف وحجّة السلطة وغيرها :

. Perelman et l. Tyteca: Traité del'argumentation, PUB Bruxelles ١٩٥٨ P ٥٧

وانظر كذلك عبد الله صولة الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج : الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه ضمن المؤلّف الجماعي الذي أنجزه فريق البلاغة والحجاج

الكمّ عبر الجمع في استعارة فنون الوصل دالّ على أنّ إدراك الشاعر للعالم إدراك كمّي، ومن المعلوم أنّ اختيار الصيغة الصرفية في بناء القضية المنطقية يوجّه إدراك المتكلّم للعالم : فقولك أحبّ **الصديق أو الصداقة** يختلف من جهة إدراك العالم ومن جهة الدلالة على انتسابك إلى فكر دون آخر عن قولك أحبّ **الأصدقاء**، فالقول الأوّل دالّ على مثالية التفكير وتعلّقه بالنموذج الفردي أو المثال المتفرّد، أمّا القول الثاني فهوأدخل في باب التفكير المنفتح على التعدّد وعلى التنوّع وعلى الواقع الاجتماعي .

٣- إسناد فعل القطف اليسير والكثير إلى الشاعر، وهونتاج لتصوّر شاعر وزير من طبقة الخاصّة التي تلبّى رغائبها بيسر، وفي هذا السياق تتفاعل عبارة "ماشينا" مع عبارة فنون من جهة الإدراك الكمّي المنغرس في ذهن الشاعر أي الوفرة التي تتمتّع بها هذه الطبقة في حدائق الأندلس الغنّاء إنّ هذه المظاهر من تداعي المعاني تؤلّف مجتمعة مع غيرها ممّا يراه قارىء آخر إطار الاستعارة، وهي تخرج بنا

بكلية الآداب منّوبة تونس وصدر تحت عنوان : أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطوإلى اليوم مذكور أعلاه .

من أسر البلاغة الضيّقة⁽¹⁾ إلى رحاب البلاغة الخطابية (بفتح الخاء) التي يتمّ فيها تجسير الصلات بين الأسلوب والمقام التلفّظي أوبين البؤرة والإطار .

إنّ النظرية الإدراكية تطرح من الأسئلة المتّصلة بإدراك مستعمل الاستعارة للموجودات ما لم تطرحه سائر النظريات البلاغية سواء منها نظرية النقل والاستبدال أونظرية التفاعل، فقد انطلقت هذه النظرية في سائر مكوّناتها من فكرة المشابهة لتبيّن أنّ الفكر البشري عامّة هي جزء من النشاط الذهني الذي يستعمله الإنسان لمقولة (Categorization) الموجودات وتصنيفا وترتيبها .

---

(١) انظر في خصوص نقد مفهوم البلاغة الضيّقة مقدّمة كتاب صور لجرار جينات في جزئه الثالث .

الخاتمة

بيّنا في هذا البحث المقتضب أنّ النظرية الإدراكية تكوّن في العلوم الإنسانية الحديثة المجال الخصب الذي استفاد فيه الدرس البلاغي من عامّة النظريات اللسانية وخاصّة النظريات التداولية . وما كان لهذه النظرية أن تتطوّر وتبلغ ما بلغته من النضج والثراء والعمق لولا إسهام سائر العلوم الإنسانية كما ذكرنا وخاصّة علم النفس الإدراكي وعلوم الحاسوب أواللسانيات الحاسوبية . ولولا تطوّر النظرية التفاعلية .وتخلص النظرية الإدراكية في دراسة الاستعارة إلى أنّ هذا النمط من الصور أومن النشاط الذهني التمثيلي ليس مشتقّا من التشبيه على نحوما يذهب إليه القدامى والبنيويون المحدثون، بل إنّه يسبق التشبيه في تجارب الاكتساب اللغوي : فنظرية المقولة الاستعارية عند الإدراكيين تسلمنا إلى أنّ وراء بنية المشابهة بوجه عامّ أطرزة أوخطاطات منها تستمدّ اللغة التشبيه والاستعارة على السواء . وقد عاد روّاد هذه النظرية وخاصّة لودفيك فيتقانشتاين وإيليانور روش إلى مقولات المواضع لأرسطوفاستفادوا منها في أنّ العالم منظّم بشكل قبلي، وأنّه ليس عشوائيا، وأنّ حركة التفكير تكتشف هذا النظام وتعمل على بناء العلاقات الممكن بناؤها بين أجزائه وعناصره، وما الاستعارة أونظام الاستعارة سوى نشاط من أنشطة هذا البناء .

وقد دحضت هذه النظرية مفهوم العدول أوالانزياح، وهوكما رأينا مفهوم أسلوبي اختلف في تعريفه الأسلوبيون ولكنّ تصورهم العامّ حوله كان واحداً، وقد أنكرت النظرية الإدراكية هذا المفهوم، أنكرت التمييز المثالي بين اللغة العادية واللغة الإبداعية، وعدّت الاستعارة نشاطا فكرياً منغرساً في لغة الاستعمال، في المعمار الذهني .ولعلّ من الفوائد الكبرى الذي يجنيها الدرس البلاغي من النظرية الإدراكية عموماً هوالقدرة على التوسّع في المادّة الإبداعية التي يتناولها هذا الدرس بالتحليل والتنظير : فالإبداع من زاوية النظر الإدراكية ليس بمقصور على الخطاب الأدبي في دلالته الجمالية الضيّقة (الشعر والنثر) بل يجاوزه إلى سائر أنواع الخطاب التواصلي التي تقتضي جهداً إبداعياً يختلف باختلاف أنواع المخاطبين والموضوعات والمجالات، فالخطاب الإعلامي يقتضي نمطا من الأبنية الاستعارية تستجيب لآفاق انتظار الجمهور المهتمّ بالصحافة، بل إنّنا نجد داخل الخطاب الإعلامي نفسه دوائر اهتمام متنوّعة متعدّدة تقتضي استخدام أشكال من الملفوظات باستعمال المجالات الاستعارية الملائمة لذلك الجمهور أولتلك الطبقة من القرّاء، والخطاب السياسي يقتضي كذلك نوعا من الخطاطات الذهنية التي يشتقّ منها معجم الخطاب جذوره الاستعارية القادرة على الإفهام والإقناع والتواصل وتقريب وجهات النظر

وإحداث التفاعل الإيجابي بين المتخاطبين، وقد انتهينا في هذا البحث كذلك إلى أنّ نظرتنا إلى الاستعارة من خلال المقولات الإدراكية تمكّننا من أن نقف على حقيقة فلسفية لم تصل إليها سائر النظريات البلاغية وهي أنّ أبنية المشابهة في الفكر البشري عامّة وفي مختلف الأعمال القولية التي تنتجها إنّما هي جزء من التفكير البشري في حقيقة العلاقة بين الأشياء والموجودات، إذ كلّما توسّعت لغة الاستعمال في ابتكار الاستعارات دلّ ذلك على وصول الإنسان إلى اكتشاف ما بين الأشياء من علاقات .وهذه الأبنية تستقي مادّتها في الاستعمال الاستعاري من مخزونات دلالية منتظمة وفق قائمات ذات رؤوس وعناوين، وهي شبيهة بالملفّات والدرج ذات المداخل المختلفة، وكلّ مدخل منها يؤدّي جذاذة يمكن استعمالها في بناء الاستعارة، وقد رأينا أنّ ملفّ الألوان يمكن أن يمنح المتكلّم جذورا استعارية مختلفة، في تيمات ومواضيع متنوّعة بواسطة الإسناد الاستعاري .

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية بيروت صيدا ١٩٨٨ .
- الأدب عند العرب، العادل خضر، دار سحر للنشر وكلية الآداب منوبة تونس ٢٠٠٤.
- الأدب والتكنولوجيا وجسر النص، حسام الخطيب، المكتب العربي للتنسيق والترجمة والنشر بيروت ١٩٩٦.
- الاستدلال البلاغي، شكري المبخوت، دار المعرفة وكلية الآداب منوبة تونس ٢٠٠٦ .
- الاستعارات التي نحيا بها، لمارك جونسون وجورج لايكوف، تعريب عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٩٦.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، بيروت ١٩٨٨.
- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطوإلى اليوم، إشراف وتقديم حمادي صمود،منشورات كلية الآداب منوبة ١٩٩٨ .
- الإيضاح في تلخيص المفتاح، الخطيب جلال الدين القزويني، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧١.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار المعرفة بيروت ١٩٧٢.
- البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤.

- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت ٢٠٠٤.
- بنيات المشابهة في اللغة العربية، عبد الإلاه سليم، دار توبقال للنشر الدار البيضاء ٢٠٠١ .
- التبيان في علم البيان، عبد الواحد الزملكاني، تحقيق أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، بغداد ١٩٦٣ .
- تحقيقات فلسفية، لودفيك فتقانشتاين، تعريب عبد الرزاق بنور، المنظمة العربية للترجمة بيروت ٢٠٠٧.
- تحليل الخطاب الأدبي في ضوء المناهج الحديثة، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٣.
- التطور المعرفي عند جان بياجيه، موريس شربل المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٤٠٦.
- التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨.
- جدلية المصطلح والنظرية، توفيق الزيدي، ط قرطاج تونس ٢٠٠٠.
- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار دار الهدى بيروت د-ت .
- الخطاب الأدبي وتحديات المنهج، صالح الهادي رمضان منشورات نادي أبها الأدبي ١٤٣٢-٢٠١٠.

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩٢.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط القاهرة ١٩٥٥ .
- فنون النص وعلومه، فرانسوا راستيه، ترجمة إدريس خطاب، دار توبقال للنشر الدار البيضاء ٢٠١٠.
- الفوائد الغياثية في علوم البلاغة، عضد الدين الإيجي، تحقيق عاشق حسين، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٩١.
- في الغرض، محمد هشام الريفي، ضمن مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم منشورات كلية الآداب منوبة ١٩٩٣.
- القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلار وآن ريبول، تعريب مجموعة من الأساتذة والباحثين منشورات المركز الوطني للترجمة تونس ٢٠١٠.
- كتاب الصناعتين، أبوهلال العسكري المكتبة العصرية، بيروت صيدا ١٩٨٦.
- مختصر المعاني في تقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية أوشرح السعد، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح القاهرة د–ت .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، بغداد ١٩٨٣ – ١٩٨٦–١٩٨٧ .

- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة ١٩٧٣ .
- مفتاح العلوم، أبويعقوب السكاكي، دار الرسالة بغداد ١٩٨١.
- المقولات، أرسطو، تحقيق وتقديم فؤاد جبر، دار الفكر اللبناني بيروت١٩٩٩.
- نظرية الأدب، رينيه ويليك ووارن أوستين، تعريب عادل سلامة دار المريخ للنشر الرياض ١٩٩١.